من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

هل كان
القس ابو البركات ابن كبر شاعراً ايضاً ؟

للامير ركن الدولة بيبرس الدوادار المنصوري تاريخٌ جمع فيه اخبار العصور المتقدمة ، وانتهى فيه الى سنة اربع وعشرين وسبعمائة للهجرة ، ودعاه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » في احد عشر مجلداً . ولا يزال مخطوطاً . ومنه اجزاء في الخزائن الغربية . وقد ذكره غير واحد من المؤرخين وكتبة التراجم كالمقريزي ، وجمال الدين بن تغري بردي ، واشاروا الى ما اورده فيه احياناً من الكلام المسجّع وقالوا : « اعانه عليه كاتبه ابن كبر النصراني » . ولا تزال منزلة ابن كبر في الكتابة والانشاء تحتاج الى زيادة في التعريف والتحقيق . ولكن لم يتقدم لاحد وصفٌ له بقرض الشعر ايضاً . وقد وقفنا في شهر اذار (مارس) من السنة الفائتة على مجلد في خزانة ميلانو المعروفة بالامبروسيانية رقم (Int. N° 230) C 45 كُتب فيه بقلم غير قلم الكتاب « هذا مختصر تاريخ المقر الركني بيبرس الدوادار تغمده الله برحمته . ويسمى مختار الاخبار نُعي بجمعه القس الشمس بن كبر نيح الله نفسه » . ولكن يستدل من لهجة الكتاب وكثرة الخطإ فيه واللحن ، وشيء من الركاكة ، ان المختصِر غيره من الاقباط ، لخّصه وقدّم عليه تاريخ الانبياء واليونان والروم في ١٠٨ ورقات . وباثنائه وبآخره خرم . وفي بعض صفحاته محو وكشط . لان احد من دخل في حوزته ، وهو علي بن محمد الملاتي ، كان كلما مرّ به ذكر محمد دون الصلاة عليه والسلام ، او اسم بعض الخلفاء بغير عبارة يرتضيها له ، كان يحكّ بعض الالفاظ ، ويضع في مكانها كلمات اسلامية اليق بالمقام . وقد لعن المؤلف اذ لم يعظّم النبي . ولما وقعت عينه مرة على اسم الصليب أخفاه بقوله « المسخّم لعن الله عَبَدته امين » . واقتدى به قاسم

كمال الدين، احد مقتني الكتاب او قارئيه، فكتب في هامش الورقة ٢٣ عند ذكر صلب المسيح ابياتاً اولها:

ان صلب المسيح اعجب شيء زعمته اهل الضلال الاسارى

ولا ننقل بقيتها لكثرة اختلالها ولحنها وانحطاطها

وفي المجلد، كما قلنا، نقص ظاهر، وخلل فاشٍ، حتى في الرسم احياناً. ولكن فيه صفحات منقولة دون شك من الاصل «زبدة الفكرة» فهو لذلك جدير بالحفظ والاعتبار. ومن هذه الصفحات ما كان كتبه بيبرس عن وقعة التتار سنة ٧٠١ للهجرة، على طرف مرج الصُفَّر مما يلي جبل غباغب في برّ دمشق. وذكر قبلها ان اهل دمشق لما رأوا تأخر العساكر المصرية وقدوم التتار، «ايقنوا ان لا قوة لهم ولا ناصر. فعجت اصوات الاكابر منهم والاصاغر. واعلن سوادهم بالشتم الظاهر.» قال «وبينا انا مفكر في هذا الامر مرَّ بي بريد راكض فسألته عن السلطان فأخبر باقترابه. ووصوله في اطلابه. فقصدت تحقيق روايته والوقوف على كتبه فاخذتها منه غصباً. واوجعته ضرباً. لما كنت فيه من التحرق على الاسلام. والقلق الذي منع الاجفان لذيذ المنام. فلما وقفت على الكتب. وتيقنت وصول السلطان عن كثب. قرأتها على الامراء. واخذت في رد العساكر التي قصدت التأخير. وعجلت الى الرجوع المسير. ليعودوا الى مرج الصُفَّر فتراجعوا اليه اولاً فاولاً. وسكن بعض من كان اُنجفلا.» (f. 104 a.)

قال المصنف (بيبرس الدوادار):

«ووافى الينا من الديار المصرية جواب عن كتاب صدر منا بالبشرى الى نوابنا تضمن ابياتاً ارسليها. سطر تاريخنا هذا لانه كان من ألزامنا. (حاشية: وهو القس الشمس بن كبر نبح الله نفسه امين) وهي

خُلقتَ مظفّراً براً وبحراً وعزمك ماضياً شاماً ومصرا
وفكرك ثاقب في كل امر ورأيك اسعد الآراء طرّا
وما سرت ركابك في جيوش فشتتهم يد العدوان قسرا
ولا كنت المقدم في خميس فعاد بخيبة او خاف كسرا
ولا وليت عن حرب هزيماً ولو كان اللقاء بجيش كسرى

ولا صاحبت ركباً في مسير فنال مشقة او ذاق عسرا
وجدّك سعده ابدًا جديد وسعدك جالب للترك نصرا...
نهدت الى الحجاز فكنت غيثاً فكم اطفأت حين أطفت جمرا
وسرت الى الشآم فكنت غوثاً رفعت مذلّة ووضعت إصرا
فعام فيه حجّ حاز اجرًا وعام فيه غزو كان اجرى
كذا كان الرشيد وانت حقًا رشيد الامر في دنيا واخرى
واعتقت الخلائق من عدوٍ شديد رام اخذ الملك قهرا
عدوٌ غرّه امل كذوب فكان على الحقيقة فيه غرًا f° 107a
وغرّته انسلامة عام تسع وتسعين فظن الربح زمرا
توغّل في البلاد وليس يدري بان امامه اسدًا هزبرا...
اتت بشراك مولانا الينا فكانت للخلائق خير بشرى
لأن الخلق كانوا في همومٍ كأن بهم من الأوجال سكرا
فاول قادم وافى بخير كتابكم الذي اسرى وسرّا
ومنه كان نشر النصر بدياً بمصر كلها بطناً وظهرا f° 107b
اتى ظهرًا من الاحد المهنّى فاظهر فرحة اذ جاء ظهرا
ومذ وافى نهارًا فهو شمس ولو وافى بليل كان فجرا
واخبر عن عدوّ الدين امرًا حقيقاً لا تزيد عليه خُبرا
ببرج الصُفّر اجتمعوا فراحوا لحينهم من الارواح صفرا
وامرهم به اضحى مريباً وورْدهم المكدّر كان مرّا
وجاؤوا في جموع ليس تحصى الوف طبقت سهلًا ووعرا
فصاروا كلهم للوحش قوتاً واشبع لحمهم في الجوّ نسرا
وشتت شملهم ضرباً وطعناً مليك ينشر الاعلام صُفرا
اذا ما اورد الرايات صُفرًا صَدرْن من الدماء الحمر حمرا
وقرّت اعين وهدت قلوب واكباد من الاشجان حرّى
فبادرنا السجود واي شكر يوازي هذه الالطاف قدرا
وجاءتنا البشائر مسرعات فاذهب بشرها كمدًا وفكرا

فندعو الله في قرب التلاقي لكي نوفي لرب العرس نذرا
كلاك الله بالأمـلاك حفظاً وصانك دائماً سفرًا وحضرا f° 108a

والقصيدة في الاصل تبلغ ٤٨ بيتاً اخترنا منها ما تقدم. وهي، على جزالتها، تبعد جدًا ان تكون من نظم ابن كبر. وهيهات ان يكون لقس قبطي مثل هذه القدرة على النظم. فلعله استعار لها لسان غيره من الشعراء. ولا يمكن البتّ في هذا الحكم قبل الوقوف على شواهد اخرى.

رفائن الخزائن

المقفّى لتقي الدين المقريزي

والتاريخ القصصي او الفكاهي

في خزانة جامعة ليدن في هولاندة ثلاثة مجلدات من هـذا المعجم النادر النفيس الذي جمع فيه الامام المقريزي تراجم من تقدمه وعـاصره من اعيان الاسلام. ومنه ايضاً مجلد واسع في دار الكتب الاهلية في باريس. وهـذه المجلدات الاربعة هي كل ما يُعرف من مسودات الكتاب التي انتهت اليـنا بخطّ المؤلف. ولعله لم يتوفّر قط على تبييضها، او لم يمهله الاجل لانجازها. وفي عدة صفحات منها نقص ظاهر وبياض كثير. وتقديم وتـأخير. وبعض التشويش في التعليقات في الجزازات الملحقة بالاصول. وقلّ عـادةً ان تخلو مسودات كتاب من امثال هـذه الشوائب، او تتبرأ من شيء من اللحن او السهو في الرسم ككتابة المقريزي ألف بـلامين « اللف » . و« الأئمة » بلام واحدة بدلاً من اللائمة. و« لان لا » في موضع لئلا. و« هناه » بالتاء المربوطة عوضاً عن هنات بالتاء المبسوطة. وهلم جرًا من نظائر هذه الصفوة. ولا حاجة الى التنبيه على قيمة هذه المجلدات ورفعة شأنها وخطرها. وفيها من الفوائد والفرائد ما لم يجتمع في كتاب آخر. وقد استوقف نظرتي فيها خاصة بعض تراجم في اجزاء ليدن وردت فيها قطعة من اسماء الاحـدين، وطائفة كبيرة من المحدثين فقط. تجدر ان تُروى مثالاً على فضائل التاريخ القصصي

او الفكاهي لما امتازت به من الجدّة والنكتة والامتاع ، وهي التي ننوي نشرها هنا

ولا يخفى على احد من المتأدّبين ما في الكتب المصنفة في السيَر والوفيات من الضيق والفاقة والاملال ، لاطرادهـا كلها على وتيرة واحـدة في القصّ والنصّ . والبعد عن كل استقصاء واغراب . وخلوّها من كل طرفة وملحة . واقتصارها ، في ما عدا شواهد النظم والنثر ، على ذكر الميلاد والحياة والوفاة ضمن دائرة حرجة من التقليد لا تكاد تتناول غير الاطوار المعروفة الظاهرة في كل بلد لكل احد . فليس هنالك شيء من الاشارة الى دخلة المترجم وباطن سريرته وسجاياه . وما اتفق له او اشترك فيه من الحوادث والوقائع والنوادر الشائقة عن اخلاق عصره واحوال مجتمعه وعادات قومه ومصطلحات زمانه . فلا يجد الناظر فيها سوى ذكر الدروس والشيوخ والتقلّب في الرتب والمناصب بين ولاية وعزل وحلّ وترحال ، مما لا غناء كبير فيه للمؤرخ والمتأدب . ولعلّ اصحّ ما يُقال في الاعتذار عن نقص هذا الاسلوب وجفائه وتقليد الاواخر فيه ان الرواة والمصنفين كانوا يتورّعون من حكاية بعض الاوصـاف والاخبـار لتخيُّلهم ان في ايرادها حطًّا من قدر الميت ومشاركة في تعييره والكشف عن نقائصه . واعتقادهم ان الراحل لا يجب ان يُشيّع بغير الرحمة والثنـاء . ولا يُخلَّد ذكره الا باطراء المحامد والفضائل ، والاغضاء عن المساوئ والرذائـل . وهي الخطة التي لا تزال متبعة مأثورة في الشرق في تأبين الاعيـان ولاسيما من رجال الدين . بحيث يتساوى عندهم الفاضل بالمفضول ويضيع على الخلف فرق ما بين المقصر والمجتهد من السلف . ومما يؤيّد هذا الرأي ما حكاه المقريزي نفسه في مخطوطه المشار اليه في ترجمة محمد بن يزيـد المشهور بالمبرّد مؤلف كتاب «الكامل» قال : « قال ابو بكر التـاريخي ولولا اني اكره ان اكون عيّاباً للعلماء خاصة لاخبرتك عنهـا (عن ثعلب والمبرّد) من الاخبار التي تزيد على اخبار محمـد بن الجهم البرمكي . والكندي . وخالـد بن صفوان . والاصمعي في الامتاع . »

فهذا التحرّج اذن من « عيب العلماء » هو السبب الاكبر الذي كمّ افواه

النقلة والرواة ، وفاتنا من اجله معرفة سرّ اخلاق المتقدمين والوقوف على كل طريف وممتع من انبائهم وخصائص طباعهم . وحُرمنا بجريرتـه من فكاهة تاريخ العصور السالفة ، ونوادر حضارتها واحاديث انديتها واسمارها ، وشجون هزلها وجدّها . بحيث تجرد علم التراجم بدونها من لُباب الاخبـار والآثار ، واصبح علماً تافهاً لا طعم له ولا طلاوة الا في ما شذّ وندر . ومن هذا الشاذ والنادر ما اتفق للمقريزي نقله في التراجم الآتية التي يلذّ لنا جدًّا ايرادها هنا لما اجتمع فيها من غُرر الفرائد والمُلح . واطيبهـا دون مراء ترجمة « مزبلة العلم » . ولا نذكر اننا وقفنا في كل مطالعاتنا على احلى منها مذاقاً واخف على الروح . وهي حافلة بالغرائب والمضحكات . ونظيرها ترجمة القاضي ابي زرعة ، ولا تكاد تقلّ عنها في الاعجاب والاطراب . ومن مطالعة هذه التراجم التي اثبتنا عيونها يتضح لكل متأدّب ما يمكن اقتباسه من التـاريخ الفكاهي من التعليقات والاستدراكات على تاريخ الادب والحضارة واخبار الدول والمتغلبين في الاسـلام :

احمد بن محمد ابو الفرج بن كشاجم

(قراءة نقش فصوص الخواتم باللمس قبل اختراع قراءة العميان)

احمد بن محمود بن الحسين بن السنـدي بن شاهك بن زادان بن شهريار ابو الفرج ابن ابي الفتح كشاجم . . . كان يقرأ نقش فص الخاتم باللمس خاصة دون الرؤية . وكان عند كافور رجل يعرف بالقـاضي الخرساوي وهو القاضي ابو عبد الله محمد بن عبدالله بن محمد بن الخصيب قاضي مصر بعد ابيه . اذا دُفع عرف من يصفعهُ بوقع يده على رقبته من غير ان يبصره . فيقول هذه يد فلان . فعمل ابن كشاجم

اني الى القاضي امتُ بجرمة هي بيننا نسب كفرض لازم
حسّ لطيف في قفاه وفي يدي هو آية بهرت عقول العالم
فقفاه يفتقـد الاكف بجسّه ويداي تقرأ نقش فصّ الخاتم

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 A)

محمد بن ابي بكر بن عباس بن ابي بكر الجزري فخر الدين ابو عبدالله المعروف بابن ممدود

(تسخير جماله)

كان محتسب الجزيرة ثم ولي حسبة ماردين وخرج تاجرًا الى الشام وسار منها الى مصر . فوجد الامير علم‌الدين قيصر المعروف بتعاسيف شاد الدواوين بناحية العبّاسية يسخّر الجمال . فاخذ جماله للسخرة . فاتاه وسأله اطلاقها فلم يلتفت اليه . فقال تُطلق جمالي وهو جيد لك . فقال له تعاسيف ايش تُعاني . فقال الادب . فقال اعمل شيئاً في تسخير جمالك . فقال بديهاً :

أسكّان مصر لا استقرت نفوسكم بأمن. وطالت في الزمان الاراجيف
ولا برحت عمّالكم ترجف الورى بشدّ تولّاه المشدّ تعاسيف

وشرع يتمّ فقام اليه المعلم تعاسيف وقال له بسّ . واعتذر اليه واطلق جماله وجمال اهل القفل وكتب له بالوصية في بلبيس والقاهرة. فلم يزن الدرهم الفرد . واقام بمصر مدة وعاد الى دمشق فسكنها حتى مات بها في سنة تسع وستين وستمائة . وقد جاوز السبعين سنة . وكان من الادباء الفضلاء . وله مشاركة في علوم

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 A)

محمد بن بركات ابو عبدالله السعيدي النحوي اللغوي مزيلة العلم وخُمس الاسلام

(غرابة خَلقه وخُلقه وزيّه، ودنس ثيابه . علمه وحبه للتقمير والتشدّق وتغفلة كل متكلم . نادرته مع بائع الرطب . ابتياعه نفائس كتب خزانة القصر بمصر بثمن بعض الارغفة . غيبوبة المشمول بين يدي السلطان، وتطييبه، لضعف بصره، بقنينة الخبر بدلًا من قنينة ماء الورد . سبب شهرته)

محمد بن بركات بن هلال بن عبد الواحد . وقيل محمد بن بركات بن علي ابن هلال بن عبد الواحد ابو عبدالله السعيدي النحوي اللغوي الدوني من ولد سعد بن شرحبيل بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد . تلميذ ابن بابشاذ النحوي وشيخ مصر في النحو واللغة . ولد في المحرم سنة

عشرين واربعمائة . وادرك ابا يوسف يعقوب بن خرزاد النجيرمي وراه وهو حي . ولم يهتدِ للاخذ عنه ... وادرك الشدة العظمى التي كانت بمصر في سني ستين واربعمائة وما بعدها . وكان اذ ذاك له اربعون سنة . وهو يقرأ على ابن بابشاد النحو .

وكان يحضر مائدة متولي الشرطة بمصر وكان يعلم اولاده ثم يأخذ رسمه رغيفين فيدفع احدهما لشيخه ابن بابشاد . وكان منقطعاً في سطح جامع عمرو ابن العاص للعبادة . ويبيع الرغيف الآخر في سوق زقاق القناديل باربعة عشر درهماً ويأخذ الدراهم ويطلع الى القاهرة يدفعها للفراشين الموكلين بالايوان بخزانة الكتب بالقصر . فيأخذ بكل درهم كتاباً . فيتخيَّر الكتب المنسوبة وخطوط العلماء وكل مستحسن . ويأتي بعد ذلك الى سقف بيت قد اغلق بابه ونقب السقف فيرمي تلك الكتب منه . كذا كل يوم . فلم تمضِ الشدة الا وذلك البيت ملآن كتباً من كل فن . فكانت سبب غنائه عن الناس الى ان مات .

وكان عجيب الخلقة مهيَّج الوجه طُوالاً يتمشَّم على طرطور فيه طول . ويتحلَّك شيء من عمامته . وثيابه دنسة ابداً . وكان يكثر التقعير والتشدق في كلامه . لا يتكلم الا باعراب وخطابة وتفخيم . وكان اذا حضر في موضع يرتفع منه كل متكلم لانه يعتمد لتخطئة كل من تكلم وجهاً يخطئه ويلحنه فيه فلا يكاد واحد يسلم منه . واتفق انه وقف ذات يوم على بيَّاع رطب يشتري منه . فقال البيَّاع يا شيخ معك ما تأخذ فيه هذا الرطب او ادفع لك دَوْخَلَة[1] . فقال له ابن بركات الخطأت لا يجوز دَوْخَلَة وانما هي دوخَلَة بالتشديد . فَوعَلَة على وزن قوصرَّة . فرفع البياع وجهه اليه فرأى شيخاً عجيب الخلقة وحشيّ الثياب بطرطور وقد تمعم فوقه . فظن انهُ من الريف . فقال والله يا مولاي الشيخ اذك دوخلة . فقال ابن بركات دوخلَة العلم لا دوخلَة الرطب . فقال البياع لا والله الا دوخلة التمر . فضحك

---

(١) في اللسان ومعاجم اللغة الدوخلَة مشددة اللام سفينة من خوص يوضع فيها التمر والرطب وهي الدوخلة بالتخفيف ايضاً

الناس وبلغ الخبر الى الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش سلطان مصر بشكوى ابن بركات ما جرى عليه الى الوالي الذي يعلم اولاده . فاستدعى الافضل البياع ووهبه دنانير وضحك من القضية . وانفذ الى الشيخ مع الوالي دنانير ايضاً .

وكان في آخر عمره قد ضعف بصره فعمل قصيدة وسأل ولد ابن ابي أسامة كاتب الدست ان يحضره قدام الافضل ويتوسط له في المجلس ويحسن السفارة في حقه ليثيبه عليها . فقرر له يوماً وبعث اليه اولاده وكانوا يقرؤون عليه . فقالوا له يا مولاي الشيخ لا يجب ان تحضر قدام السلطان بهذه الثياب القطن الدنسة . نحن نأخذ لك ثوباً نُصافياً[1] وعمامة جيدة وعَرضيًّا من الشَرْب[2] . وتتبخر وتتطيب بماء الورد فتعود الى سيما الناس . ربما يدنيك السلطان ويحادثك فلا يرى منك الا ما يعجبه . فان الملوك لا صبر لهم على ما لا يعجبهم . فقال يا قوم والله انكم تطلبون مني تعديل ما أمالـه القدر . كذا خلقني الله عزّ وجلّ . وكذلك قُدّر لي فتتعبون فيّ ولا يكون الا ما قُدّر لي . فقالوا لا بد . فقال اعملوا ما شئتم . ففصّلوا له ثوباً من النصافي السابوري . وغلالة من الغزل المعروف بالطلي . ومعها عمامة من الصقلي وعرضي من الشرب الرفيع . وجاؤوا بعود ند وماء ورد في قنينة كبيرة ثم واعدوه الغد وقالوا له تلبس الثياب وتبخر وتطيب واجلس حتى تحضر لك بغلة وتمضي . فقال افعل .

فلما كان السحر قام الشيخ ولبس ثيابه التي احضروها له وتطيب . ثم اخذ قنينة ماء الورد ليرشها على وجهه ولحيته . فغلط واخذ قنينة الحبر ورش منها على وجهه ولحيته وعمامته وثيابه فصار سخاماً من قرنه الى قدمه . فلما جاء

---

١) النُصافي كذا بالضم جمع نُصفيّة وهي ثوب من الحرير والكتان . وقد تكون من القطن وحده ومنها النصافي الخزّيّة نسبة الى خزّة بُليدة قرب اربل من ارض الموصل وهي ثياب قطن ردية (ياقوت : معجم البلدان . طبعة اوربة ٢ : ٢٦٢) ولبعضهم في النصافي

يا من نُصافيه ونسأل وده اذ كان فينا دائم الانصاف
اقبل هدية اهل ودّك انهم قالوا كما اهدوا اليك نُصافي

(كتاب بيان المشي لمحمد بن الحكم الشافعي . خزانة اكسفرد ٢٩ Marsh. 490)

٢) العَرضي بالفتح وياء النسبة جنس من الثياب . كذا في التاج دون نعت ولا تبيين . والشرب نسيج في غاية الرقة والنعومة من الكتان تعمل منه الثياب والعمائم والاقمصة الفاخرة .

القوم ورأوه بيتوا لانهم رأوا شيخاً اسود مسخَّم الوجه كأنما مرّغته في زفت . فقالوا اي شيء هذا يا مولاي الشيخ . قال عنادكم للمقادير . اني اقول لكم ان الله سبحانه لم يخلقني الا على ضد ما تطلبون وانتم تعاندون . اردت ان آخذ قنينة ماء الورد فاخذت قنينة للحبر وانا في الظلام وبصري كما علمتم . وبختي لم يبق البارحة عندي — وكان له بواب يسمى بختي وكان من الصالحين — ثم قال والله الذي لا اله الا هو . ان صبغت ثيابي وكل ما عليَّ الا ازرق . فقالوا لا تفعل فقال قد كان ذلك وصبغ ثيابه وكل ما عليه عند الصباغ . وبلغ الخبر الافضل فاحضره وسمع قصيدته ومنها :

يا رحمة الله التي واسعها لم يَضِقِ
لم يبقَ الا رمقي فاستبقي مني رمقي
تسعون عاماً قُيِّدت وتسعة في نسقِ
وعن قليل لا أرى كأنني لم أخلقِ

فوهبه وانعم عليه وقرّر له شيئاً في كل وقت يكفيه

وذكر بعضهم انه وقف للافضل وهو راكب في الطريق وانشده هذه الابيات . فسأل عنه الافضل فقيل له هذا بحر العلم ابن بركات . فقال له الافضل انت شيخ معروف وفضلك موصوف وقد حملنا عنك الوقوف . وامر له بشيء . والاول اثبت فقد حكاه الشريف محمد بن اسعد الجواني ومن خطه نقلت في كتابه الذي سمّاه الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون

وقال السلفي « ابو عبد الله محمد بن بركات ثقة فاضل » . وكان ابن القطاع يقول فيه « مزبلة علم » . وقال ابن ميسّر عنه « وله كتاب في خطط مصر اجاد فيه ولم اقف عليه » . قال كاتبه « وقفت عليه بخط محمد بن اسعد الجواني »

وقال صاحب الجنان[1] « كان عالي المحل في النحو واللغة وسائر فنون الادب . منحطاً في الشعر الى ادنى الرتب . الا ان علو قدره لم يُجز اهمال ذكره » . واورد من شعره :

١) كتاب الجنان ورياض الاذهان للقاضي الرشيد ابي الحسن احمد بن الزبير

يا عُنُق الابريق من فضة ويا قوام الغصن الرطب[1]
مَلَكَ تجافيتَ فاقصيتني تقدر ان تخرج من قلبي
وملك صيّرت على هجرتي رضيتُ ان اتلف في الحب
والله لو عذّبتني جاهدًا ما قلت من حبي اذًا حسبي

ويقال انه قال هذه الابيات في مسافر العطار

ومن مصنفاته كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن سماه الايجاز في معرفة ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ . الّفه للافضل ابن امير الجيوش . وتوفي في شهر ربيع الاخر سنة عشرين وخمسمائة بعد استتمام مائة سنة . وكان يقول انا خُمس الاسلام

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 A)

محمد بن عبيد الله الكاتب

(بيتان له في الملوخية)

محمد بن عبيد الله بن جبريل بن عبيد الله ابو عبد الله بن ابي محمد العارف جبريل الاخميمي الاصل المعروف بابن عبيد الله الكاتب في الانشاء . ولد بمصر سنة اربع وعشرين وستمائة . . . وله في ناصر الدين محمد بن كمال الدين ابن الاعز بن شكر

لناصر الدين ملوخية ابصرتها في عمري مره
اقول للناس وهم حولها تنزهوا في الماء والخضره

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 [illegible])

القاضي محمد بن عثمان ابو زرعة الثقفي

(قاض بثغر سراويل بعلي الخشبة تسكين الوحاء الفرس . يشتي برًا يسين حار له سكران . وصف بعاقة وفرس ابن له)

محمد بن عثمان بن ابرهيم بن زرعة بن ذي زرعة ابرهيم ابو زرعة الثقفي مولاهم قاضي مصر ودمشق . كان جدّ جدّه ابرهيم يهوديًا فاسلم . . . قال

(١) ويروى هذا البيت ايضًا
يا عنق الابريق من عسجد ويا قضيب البانة الرطب

ابن يونس ولي قضاء مصر . وكان محمود الاثر وكتب عنه وكان ثقة . وابو زرعة هذا هو اول شافعي ولي قضاء مصر ... وكان الغالب عليه السلامة . وكان له مال كثير وضياع كبار بالشام . وكان قد قام مع احمد بن طولون في خلع ابي طلحة الموفق بالله بن المتوكل ووقف عند المنبر بجامع دمشق يوم الجمعة وقال : ايها الناس أشهدكم اني قد خلعت ابا احمد كما خلعت الخاتم من الاصبع فالعنوه . فلما قدم الموفق الى دمشق وواقع ابا الجيش خمارويه احمد بن طولون خارج الرملة وعاد الى دمشق اخذ يزيد بن عبد الصمد . وابا زرعة الدمشقي المحدث . وابا زرعة هذا وغيرهم .(ورحل) بهم الى بغداد . فلما كان في اثناء الطريق احضرهم وقال ايكم القائل « قد نزعت ابا احمد » . فخرس يزيد . وأبلس ابو زرعة الدمشقي . وكان احدثهم ابو زرعة محمد بن عثمان هذا فقال: اصلح الله الامير . فقال له احمد بن محمد الواسطي كاتب ابن طولون وقد صار مع الموفق : قف يا هذا حتى يتكلم اكبر منك . فقال ابو زرعة الدمشقي : اصلحك الله . هو يتكلم عنا . فقال : تكلم . قال : والله ما فينا هاشمي صريح ولا قرشي صحيح ولا عربي فصيح . ولكنا قوم مُلكنا وقُهرنا . ثم روى احاديث في السمع والطاعة . واحاديث في العفو والاحسان . وقال : اشهدك ايها الامير ان نسائي طوالق وعبيدي احرار ان كان احمد في هؤلاء القوم قال هذه الكلمة . ووراءنا حُرم وعيال وقد تسامع الناس بهلاكنا . وقد قدرتَ وانما العفو بعد المقدرة . فقال للواسطي : أطلقهم لا كثر الله امثالهم . فسار ابو زرعة الى حمص ثم قدم الى مصر وولي القضاء بدمشق من قبل الامير ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون لانه كان في عهده ان القضاء اليه ...

قال ابن زولاق: حدثني عبدالله بن عبد الكريم قال كان ابو زرعة خبيثاً مَكِرًا . ولما قدم الى مصر لزم احمد بن طولون وجعل يتردد اليه ويبكي ويصل خبره في كل ذلك الى ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون فاعجبه ذلك . ثم دخل الى ابي الجيش ومعه رغيف حوّارى ومنديل فقال له ايها الامير هذا رغيف ختمت عليه عشر ختمات وقرأت عليه عشرة آلاف « قل هو الله احد » . فاخذه منه

ابو الجيش وحَسُنَ موقعهُ منهُ . وكان سبباً لولايته القضاء بالشام .

ثم ولّى الامير ابو موسى هرون بن خمارويه ابا زرعة محمد بن عثمان قضاء مصر وفلسطين والاردن ودمشق وغيرها . فاقام بمصر . وكانت ولايته في سنة اربع وثمانين (ومائتين) فلم يزل والياً حتى (مات) هرون ودخل محمد بن سليم الكاتب الى مصر آخر صفر سنة اثنتين وتسعين . ولما خرج منها حمل ابا زرعة في من حمل معه الى بغداد ليلة الاحد ثالث رجب منها . وكانت ولاية ابي زرعة القضاء بمصر ثمان سنين وشهرين . وتوفي بدمشق في شوال سنة احدى وثلثمائة . وقيل مات في سنة اثنتين وثلثمائة . . .

وقال الحسن بن القاسم بن دحيم الدمشقي . وُلد للقاضي ابي زرعة ولد سماه الحسن وكناه ابا عبد الله . ثم ولد له آخر فسماه الحسين وكناه بابي محمد . . . وكان مهد ولده الحسين الى جانب بِنطرهِ والشهود حوله . فاذا تحرك صاح بالداية « إلحقي حسيناً » . فتأتي ترضعه وهو ينظر اليه

وكان ابو زرعة يرقى من وجع الضرس ويقرأ عليه ويدفع الى صاحبه حشيشة توضع عليه فيسكن . ويستغني طالب الحشيشة بدخول داره عن الحشيشة ويبدأ ضرسه بدخول الدار ويكون اخذه الحشيشة فضلاً . وكان له ستور يمسحه وهو ينظر الى الخصوم . . .

وزوّج ابو زرعة ابنه الحسين من ابنة ابي زنبور (الحسين بن احمد المادراني) وكان إملاكاً عظيماً وذلك ان ابا زنبور شاور كيف يصنع بالإملاك فاختلفوا عليه . فقال دعوني الليلة . ثم اصبح فقال ارسلوا الى هذه المائة — وكتبهم في درج — يكونوا عندنا قبل صلاة الصبح . فاذا حضروا فأغلقوا الباب . فجاء المائة . وخرج اليهم مائة غلام بمائة مدخنة ومائة نشّاح ماء ورد . ومائة قدح غالية . ومائة مرآة . ومائة مشط . فتبخروا . ثم قُرِئَ الكتاب وعقد النكاح . وخرج مائة غلام . ومائة ابريق . ومائة طشت . ومائة منديل . فغسلوا ايديهم . وخرجت عشر موائد فجلس كل عشرة على مائدة فاكلوا . ثم خرج مائة غلام بمائة طشت . ومائة ابريق . ومائة منديل . ومائة بجمع فغسلوا غسل رجل واحد . ثم خرج مائة

غلام بمائة مدخنة ومائة درج[1]. ومائة نضّاح ماء. ورد. ومائة منديل. ومائة مرآة لا ادري أهي الاولى ام غيرها فتبخروا. وخرجت مائة صينية فيها الدنانير والدراهم والتماثيل[2]. فألقيت في اكمام الناس. واخذ واحد العروس وابوه (كذا) ابو زرعة. فأدخلا حجرة وخلع عليهما وبُجّرا وحُملا على دابتين وشاكريين. ورزق منها بنتاً زوّجها باحمد بن حسين العقيقي

وكان ابو زرعة كثير الشفقة رقيق القلب كثير السلم بحيث انه كان يغرم عن الضعفاء واهل الستر في النفقات والديون. وربما اراد قوم نزهة. فيأخذ الواحد بيد الآخر فيطالبه بالشي. فيقر له ويبكي. فيرحمه ويؤدي عنه بعد ان يسأل خصمه فلا يجيبه. وكان له جار سفيه بجوار داره بمصر. وكان مدمناً الشرب المسكر. فجاء ليلة وهو سكران فجعل يقي. ويصيح. فقالت له زوجته: اياك يسمعك القاضي فقال لها انت طالق ثلاثاً ان لم يغنّيني (كذا) القاضي في هذه الليلة. فبكت المرأة واولادها حتى سمع جماعة القاضي رجّتهم فاستخبروهم فحدثوهم بما وقع. فمضت الجواري الى القاضي وحدّثنه بذلك على طريق التعجب. فقال لهم افتحوا الباب وجيئوني به. فلما دخل عليه قال له ما حملك على ما قلت وحلفت عليه. فقال الجهل اعزّ الله القاضي. فقال له القاضي قد كان يقال (وغنّاه)

ليس للنرجس عهد انما العهد للآس
نقض النرجس عهداً وبقي العهد للآس (كذا)

قد خرجت من عينك. والله لولا الجوار لارسلت بك الى السلطان حتى يؤدبك. ولئن عدت لأقومنك...

وقال ابو زرعة كنت ببغداد في مجلس عبيد الله بن سليمان الوزير. فقال لي يا ابا زرعة بلغني ان القضاة والشهود بالشام يركبون الدواب بالخفاف بلا سراويلات. فأنكرت ذلك وقلت هذا كذب أيد الله الوزير. وكنت بغير سراويل. فعاهدت الله ان سلمت وقمت من مجلسه الا افعله ابداً. وان أعتق كذا وكذا مملوكاً. فسهل الله ان نهضت ولم يتحنني بالتفتيش

(١) الدرج هنا هو ما يوضع البخور فيه (المقفى ص ٢٠٧)
(٢) التماثيل هي شخوص وحيوانات كانت تصنع من الند والعنبر وتحدى في الاعياد والمواسم

وكان ابو زرعة اكولاً يأكل سل مشمش وسل تين وسل خوخ وما اشبه ذلك. وكان قد اختص بابي الحسن علان بن سليم احد الشهود بمصر وقدمه واودعه. وكان يقال انما ولي ابو زرعة القاضي القضاء لعلان وحده

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 b f° 85-87)

قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري

(كان له تقية في داره تتلقاه من الباب وتمشي امامه بين صفّين من نسائه وهي تنادي بثروته والقابه بتفخيم وتفعير)

محمد بن عثمان بن ابي الحسن بن عبد الوهاب قاضي القضاة شمس الدين ابو عبدالله ابن صفي الدين ابي عمرو بن زكي الدين المعروف بابن الحريري — نسبة الى الحرير فان اباه كان يعاني بيعه — الانصاري الدمشقي الحنفي . ولد بدمشق في عاشر صفر سنة ثلث وخمسين وستمائة . . . وصار إماماً في الفقه مشاركاً في علوم كثيرة. ودرّس في عدة مدارس بدمشق كالظاهرية والصادرية والخاتونية ثم ولي قضاء القضاة الحنفية في سادس جمادى الاخرة سنة احدى وسبع مائة . . . واستدعي الى القاهرة فخرج من دمشق يوم الاثنين العشرين من ربيع الاول سنة عشر وسبعمائة وقدم القاهرة في اول ربيع الاخر فخلع عليه وباشر الحكم. ودرّس . . . وسار سيرة جميلة . . . وتشدد في ولايته على ارباب الجاه الا انه كان يبالغ في تعظيم نفسه حتى انه كان له امرأة جعلها تقيية في دار حرمه فاذا دخل عليهنّ تلقته التقيية من الباب ومشت بين يديه وهي تقول: بسم الله . سيدنا ومولانا قاضي القضاة. ونعوت كثيرة فيها تفخيم وتفعير حتى ينتهي الى مرتبة عالية في صدر بيته فيجلس عليها وتقف نساء داره باجمعهنّ بين يديه بادب زائد وسكون. فيلتفت الى زوجته ويقول لها أكرمي التقيية فانها تعظّم بعلك . . .

واتفق له عزله عن قضاء مصر. وسببه ان الامير بكتمر الساقي لما انشأ له السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون داراً في ارض الميدان المُطل على بركة الفيل وادخل فيه دار الامير سلار واخوته قصد توسعة اصطبل هذه الدار بادخال قطعة من البركة فيه. والبركة من اوقاف الملك الظاهر بيبرس البندقداري على ذريته. فتقدم الى القاضي ابن الحريري باستبدال ما يحتاج اليه من ارض البركة

بخير منه كما هو مذهب الحنفية في استبدال الاوقاف. فامتنع من ذلك وفاوض السلطان بسببه مفاوضة أدّت الى تنافس... وقام من مجلس السلطان وكل منهما قد امتلأ غضباً. وكان مع ذلك قد تقدم له غير مرة إهانة النصارى من الكتاب وغيرهم وإلزامهم الصغار. واذا وجد احداً منهم راكباً انزله وضربه ونكل به. واذا وجده ماشياً وعليه ثياب سريّة اهانه. فضاق ذرع الاقباط به ولم يجدوا سبيلاً الى الطعن عليه. وكان كبير الدولة وعظيمها يومئذ كريم الدين اكرم بن هبة الله ناظر الخاص. فلما قام ابن الحريري من مجلس السلطان وهو مغضب وجد القبط السبيل الى كيده...

ثم أُعيد الى قضاء مصر بعد ان أُفرزت عنه ولم يبقَ معه غير قضاء القاهرة. ومات في يوم السبت خامس جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 h f° 88–89)

عماد الدين الكاتب الاصفهاني

(حرصه على الدنيا ودناءة نفسه ووصف اخلاقه. حرّده على السلطان صلاح الدين ونصب القاضي الفاضل له)

محمد بن محمد بن حامد... بن أَلَه ابو حامد عماد الدين المعروف بابن اخي العزيز الاصفهاني الشافعي الكاتب. مولده باصفهان في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة. وقيل في شعبان سنة تسع عشرة وخمس مائة. وتوفي بدمشق ليلة الاثنين في مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مائة. ودفن بمقابر الصوفية... وكان محل الثقة من القاضي الفاضل آمناً من توثبه عليه. ولهذا كان يطمئن اليه اذا غاب مع السلطان. وكان رحمه الله شديد الحرص على تحصيل الدنيا. وكان الفاضل يلومه ويعتبه ويعذله ويوثبه على ذلك فلا يرعوي... وله في هذا حكايات. منها ان رجلاً من اهل حمص جاءه بطبق كيزان وتفصيلة كتان. قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً وسأل حاجة. فاخذ قصته وقرأها على السلطان وكان قد بلغه الخبر. فلم يُجبه. فاعاد العماد عرض القصة وقراءتها مرات في مجالس عدة والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهى. ففطن العماد وعلم ان الخبر قد اتصل بالسلطان. فاعاد عرض القصة فلما لم يُجبه عنها. قال يا مولانا الطبق الذي احضره صاحب هذه

القصة باقر الى الآن لم اتصرف فيه. فان كان ما ينقضي شغله اعدت عليه طبقه. فضحك السلطان وعجب من دناءة نفسه وامر بقضاء شغل الرجل.

وكان شديد التهافت على اخذ الختوم الذهب التي تجي على كتب الفرنج. فوصل منهم كتاب بغير حضوره. ففتحه السلطان بيده واخذ بعض الحاشية الختم. فلما جاء العماد قيل له اكتب جواب هذا الكتاب فقال يكتب جوابه من اخذ الختم. فعزّ قوله على السلطان وقال له: قم اخرج. الوقت ما هو محتاج اليك. فاتى الى الفاضل وعرّفه ما كان. فقال له رُح الى الخانكاه واقعد بها مع الفقراء والبس زيّهم فاذا طلبك السلطان قل انا قد دخلت في امر لا اخرج منه. ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مترضياً. ثم لم يلبث الفاضل حتى اتته رسل السلطان في طلبه. فلما اتاه شكا اليه العماد. وقال له اكتب جواب هذا الكتاب فقال والله ما اعرف ما اكتب فيه لان العماد كان يعدّد هذه الكتب ولا يعرفها سواه. ولم يزل يتلطف بالسلطان حتى قال: اطلبه. فبعث في طلبه فلم يحضر واعتذر فعظّم الفاضل الامر وكرّر الرسل في طلبه وهو لا يحضر. فقال الفاضل انا اروح خلفه واتلطف به. فوالله هذا باب ما يسدّه سواه. ثم ذهب واطال المكث وعاد الى السلطان وقال قد حرصت به ورأيته مقبلاً على ما دخل فيه اقبالاً ما اظنه بقي يخرج عنه. وما ضرّ السلطان لو زار الفقراء وترضّى عبده. ولم يزل به حتى اتاه وترضّاه. ومن شعره...

هي كتبي فليس تصلح من بعـ ـدي لغير العطار والاسكافي
هي اما مزاود للعـقاقير و واما بطـانة للخفـاف

وكان ذا قدرة على النظم والنثر وشعره الطف من نثره لانه اكثر فيه من الجناس وبالغ حتى صار كلامه كأنه ضرب من الرقى والعزائم... وقال القاضي الفاضل لجلسائه بمَ تشبهون العماد. وكان عنده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام. فاذا اخذ القلم اتى بالنظم والنثر. فكلهم شبّهه بشيء. فقال ما اصبّه. هو كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار. ولما فرغ من كتاب الخريدة جهزها الى القاضي الفاضل في ثانية اجزاء. فقال: اين الآخران. لانه قال: نحري دَه يعني «نحري عشرة». فان دَه بالفارسية عشرة. ومن هنا اخذ ابن سناء الملك قوله فيها:

خريدهُ أُقيمِ من نتنها كأنما من بعض انفاسهِ
فنصفها الاول في ذقنه ونصفها الآخر في راسهِ

ولما قدم دمشق سنة اثنتين وستين وخمسمائة تعرف بمدبّر الدولة القاضي كمال الدين الشهرزوري. وكان قد اتصل في طريقه بنجم الدين ايوب لمعرفة كانت بينه وبين عمه العزيز بتكريت. فاستخدمه كمال الدين عند السلطان نور الدين في الانشاء. فجبُنَ اولًا. ثم ترقت منزلته عند السلطان وبعثه في الرسالة الى الامام المستنجد بالله. وفوض اليه تدريس المدرسة المعروفة بالعمادية بدمشق. ورتبه في إشراف الديوان. فلما مات نور الدين وقام من بعده ابنه تنكّرت احواله فعاد الى العراق. فلما بلغه وصول السلطان صلاح الدين يوسف الى دمشق واخذها عاد الى الشام والسلطان على حلب. فمدحه ولقي القاضي الفاضل على حمص ومدحه بقصيدة. فدخل على السلطان وقال له غدًا يأتيك تراجم الاعاجم وما يحلّيها مثل العماد. فقال له مالي عنك مندوحة. انت كاتبي ووزيري ورأيت على وجهك البركة فاذا استكتبتُ غيرك تحدث الناس. فقال: العماد يحلّ التراجم وربما اغيب انا فاذا غبت قام مقامي. وقد عرفت فضله وخدمته لنور الدين. فاستخدمه عند ذلك واطلعه على سره...

وكان يضاهي الوزراء. فاذا انقطع الفاضل بمصر لمصالح السلطان قام العماد مقامه. فلم يزل على ذلك حتى مات السلطان فاختلّت احواله ولم يجد في وجهه بابًا مفتوحًا فلزم بيته. واقبل على التصنيف بقية عمره وتأخرت وفاته بعد الفاضل سنة

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366c f° 99-101 h)

كمال الدين الدميري

(افراط نَهَمه في شبيبته واكله الفار بنواها)

محمد بن موسى بن عيسى الشيخ المفتّن الناسك كمال الدين ابو البقا الدميري الشافعي. برع في الفقه والوعظ ودرس في عدة اماكن وافتى عدة سنين ووعظ الناس زمانًا. وكان على وعظه قبول. واقبل في آخر عمره على النسك ورتب ليله ونهاره لوظائف العبادة حتى مات في ليلة الثلاثا ثالث جمادى الاولى سنة ثمان

وثماني مائة عن ست وستين سنة. وله عدة مصنفات منها . . . كتاب حياة الحيوان. وكان حسن المعاشرة جميل المحاضرة كثير التواضع متوددًا الى الناس محبيًا عندهم غزير الدمعة مُعتَقَدًا فيه الخير. وكان في شبيبته اكولًا الى الغاية مفرط النهمة. له في ذلك اخبار عجيبة. منها ما اخبرني به الفقيه العالم صلاح الدين محمد بن الاعمى الحنبلي رحمه الله قال كنت والكمال الدميري متجاورين بمدرسة الجمالي من القاهرة. فجلسنا يومًا لنأكل برقوقًا فقلت له لا ترمِ نواه من ههنا لئن لا يقف علينا الذباب ولكن ألقهِ هناك. فقال لي ما رميت قط نوى برقوق ولا خرخ ولا مشمش ولكن آكل ذلك كله بنواه. فتعجبت من ذلك. ومرّ لي زمن فحدثت بذلك صاحبنا ابا الطيب بن الفرّي المدني رحمه الله فقال لي أحدثك عنه باعجب من هذا. وهو انه جاور بالمدينة النبوية فاكل بجشوري صاع تمر بنواه. ثم انه رحمه الله في آخر عمره لم يكن عنده من ذلك شيء. وكان يأكل اكلًا معتدلًا. ثم اقام سنين يصوم الدهر. وكان له نظم جيد ومحفوظات كثيرة سيما في الحديث واخبار الرواة. وبالجملة فلم يخلف بعده مثله في معناه.

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 f° 113)

الشيخ نجم الدين ابو البركات الخبوشاني الصوفي

(سبّه الدولة الفاطمية قبل انقراضها وقطعه المقطية باسمها. جرأته على السلطان صلاح الدين ووكزه اياه بعصا اسقطت قلنسوته ودعاؤه عليه بالفشل وعدم النصر. إنكاره بيع المزر وشتمه من اجله تقي الدين عمر ابن اخي السلطان وضربه رسوله. صياحه في وجه القاضي الفاضل)

محمد بن موفق بن علي بن سعيد بن الحسن بن عبدالله الشيخ الزاهد نجم الدين ابو البركات بن ابي المطهر الخبوشاني الصوفي الشافعي. مولده باستوا خبوشان في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة عشر وخمسمائة. وتفقه بنيسابور على محمد ابن يحيى. وكان يقول اصعد الى مصر وأريل بني عُبيد. فقدم الى مصر سنة خمس وستين وخمسمائة ونزل في بعض مساجدها. فاتفق ان الخليفة العاضد لدين الله ابا محمد عبدالله بن يوسف رأى في منامه انه بمدينة مصر وقد خرج اليه عقرب

من مسجد معروف بها فلدغهُ. فانتبه مذعورًا واستدعى عابر الرؤيا وقص عليه ما رأى. فقال ينال امير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد. فالزم الوالي باحضار من في المسجد. فمضى اليه واحضر منه رجلًا صوفيًا. فسأله العاضد من اين هو ومتى قدم مصر وفي اي شيء جاء. فاجابه عن ذلك ولم يظهر منه للعاضد ما يريبه بل تبين منه ضعف الحال مع الصدق. فدفع اليه مالًا وقال له يا شيخ ادعُ لنا وخلّاه لسبيله. فعاد الى مسجده ولم يزل به حتى قدم شيركوه من دمشق وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب وشرع في إزالة الدولة واستفتى فقهاء مصر فكان اشدّهم مبالغة في الفتيا وعدد مساوئ القوم وسلب عنهم الايمان واطال القول في الحط عليهم. وعندما عزم صلاح الدين على قطع اسم العاضد من الخُطبة لم يتجاسر احد ان يأمر الخطيب بذلك الا الخُبوشاني فانه قام يوم جمعة وفي يده جريدة وامر الخطيب بقطع اسم العاضد فانقطع اسمه من يومئذ وصدقت رؤيا العاضد. فلما استبد السلطان صلاح الدين بمملكة مصر قرّبه واكرمه وبالغ في اعتقاد دينه وعلمه. فاشار على السلطان بعمارة المدرسة بجوار قبر الامام الشافعي. فامتثل ذلك وتقبّل الخُبوشاني بعمارتها حتى كملت ودرّس بها وسكن فيها الى ان مات هناك في يوم الاربعا الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٨٧ . . .

وخُبوشان بليدة بناحية نيسابور. وكان من ورعه اذا ركب الحمار يجعل تحته اكسية لئلا يصل اليه عرقه. واتاه السلطان الملك العزيز عثمان ليزوره وصافحه. فاستدعى بماء وغسل يديه وقال يا ولدي انت تملك المنان. ولا يتوقى الملهان النجاسة. اغسل وجهك فانك بعد المصافحة لمست وجهك. فقال نعم وغسل وجهه. ولما خرج السلطان صلاح الدين الى الفرنج نوبة الرملة جاء الى الخُبوشاني ليودعه. والتمس منه امورًا من المكوس ليسقطها عن الناس فلم يفعل. فقال له لا نصرك الله. وركزه بعصا فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه. فوجم السلطان ثم توجه الى الحرب فانكسر وعاد الى الشيخ وقبل يده فظن ان ذلك بدعوته واذعن لكلامه.

وكان لتقي الدين عمر ابن اخي السلطان مواضع يباع فيها المزر. فكتب

الشيخ ورقة الى السلطان فيها: ان هذا عمر لا جبره الله يبيع المزر . فسيّرها الى عمر وقال لا طاقة لنا بهذا الشيخ فأرضِهِ. فركب اليه. فقال له حاجبه قف بباب المدرسة حتى اسبقك اليه واوطّي لك . ثم دخل وقال تقي الدين يسلّم عليك فقال بل شقي الدين لا سلّم الله عليه. قال انه يعتذر ويقول ليس لي موضع يباع فيه المزر. فقال يكذب. فقال ان كان هناك موضع مزر فأرناهُ . فقال ادنُ. وامسك ذوّابتيه وجعل يلطم وجهه وخديه ويقول لستُ مزّارًا فاعرف مواضع المزر. ثم تركه وخرج الى تقي الدين فقال فديتك بنفسي

واتاه القاضي الفاضل يوماً وهو يلقي الدرس على كرسي ضيق . فجلس على طرفه وجنبه الى قبر الشافعي. فصاح فيه قم. ظهرك الى الامام . فقال ان كنت مستدبره بقالبي فانا مستقبله بقلبي. فصاح فيه ما تعبدنا بهذا. فخرج وهو لا يعقل

وقال انه كان يتصرّح بسبب الدولة المصرية قبل انقراضها. فبعثوا اليه باربعة آلاف دينار. فنهض الى الذي احضرها وهو بذاك الزي الهائل وقال له وقد اشتد غضبه ويلك ما هذه البدعة. فالقى اليه ما معه بين يديه. فضربه على رأسه حتى تحلقت عمامته في حلقه. وانزله ودمى بالدنانير على رأسه وسب اهل القصر.

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 f° 118-119)

القاضي محمد بن مسروق الكندي الاعور قاضي مصر

(تشدّده في الحكم وإنصافه من المسأل. شدة تجبره وانقطاعه عن حضور مجالس الامراء. شتمه اهل مصر وضربه وكيل زبيدة امرأة هرون الرشيد. كان اول من ادخل النعاري المسجد وقضى عليهم فيه. واول من اتخذ القمطر للكتب)

محمد بن مسروق بن معدان بن المرزبان . . . بن معوية بن كندة. القاضي ابو عبد الرحمن الكندي الكوفي الحنفي الاعور قاضي مصر . . . وليَ قضاء مصر من قبل امير المؤمنين هرون الرشيد بعد المفضّل بن فضالة. فسار من بغداد الى مصر وقدمها في خامس صفر سنة سبع وسبعين ومائة. والامير يومئذ عبدالله بن المسيب الضبي وباشر القضاء. فتشدد في الحكم وأعدى على العمال وانصف منهم. واظهر تجبرًا عظيماً وباعد الخصوم. وكانت عادة امراء مصر يحضرون القضاة الى

مجالسهم . فبعث اليه عبدالله بن المسيّب يامره بحضور مجلسه . فقال لو كنت تقدمت اليك في هذا لفعلت وفعلت يا كذا يا كذا . فانقطع حضور القضاة مجلس الامراء من يومئذ . واتخذ ايضاً قوماً من اهل مصر للشهادة وسمهم بها واوقف سائر الناس فوثبوا به ووثب بهم فشتموه وشتمهم . وكانت منه هِناة (كذا) الى اشرافهم . وخرصم هاشم بن حديج اليه فقال له انما انت من السكون ولست من الاملاك . فقال له هاشم ليس لهذا حضرنا . والله لا حضرت لك مجلساً ابداً ومن تظلم اليك مني فأعده علي واقض له في مالي بما يرغبه . وكانت اموال اليتامى والاوقاف والغيب ترد الى بيت المال منذ زمن ابي جعفر المنصور الى ايام الرشيد . فلما ولي محمد بن مسروق وتحامل على الناس اساؤوا عليه الثناء والذكر واشاعوا عليه انه عزم على حمل ما في بيت المال من هذه الاموال الى هرون الرشيد ببغداد . فقام ابو اسحق الحوفي فنادى في المسجد الجامع ودعا على محمد بن مسروق فاحضره ابن مسروق وناله بمكروه . فزاد اهل مصر في مقته . فعندما اكثر اهل المسجد في ذمّه . وقف على باب المقصورة ونادى بصوته ابن اصحاب الاكسية العسلية . ابن بني (كذا) البغايا . لم لا يتكلم منهم متكلم بما شاء حتى يرى ويسمع . فما تكلم احد بكلمة .

وكان القضاة بمصر لا يقضون على النصارى بالمسجد وانما يجلسون لهم يوماً في منازلهم . واول من ادخلهم المسجد محمد بن . روق . . .

ولم يكن قبله لقضاة مصر قِسطر . انما كان كاتب القاضي يحضر ومعه الكتب في منديل . فاول من جعل له القسطر بمصر محمد بن مسروق . وكان يختم القسطر ويودعه فاذا جلس احضره . وكان يروح من الموقف الى المسجد ماشياً . وخرصه اليه عبد الرحمن وكيل السيدة زبيدة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور امرأة هرون الرشيد فامر باحضاره فجلس مع خصمه متربعاً . فامر به فبُطح وضرب عشراً . فنماه الى مولاته زبيدة . وتشدد ايضاً على عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز ابن عمر بن عبد الرحمن بن عوف فشخص من مصر الى الرقة ونماه ورفعه القرشيون هناك وكلّم فيه ابا البختري حتى عزله . فلما بلغه العزل خرج من مصر قبل ان يقدم الذي استقضاه ابو البختري واستخلف على مصر اسحق بن الفرات

غضباً عليهم وذلك سنة اربع وثمانين وقيل سنة خمس وثمانين ومائة . ويقال انه مات فيها . . .

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366c f° 121-122)

محمد بن يزيد ابو العباس المبرّد

(افراطه في البخل واحتجاجه له . استتاره في بيته لتناول الطعام . قدومه بغداد واحتياله في المسجد لجذب الناس اليه . إرسال ثعلب له من تلاميذه من يفاتشه وانقطاع الزجّاج منهم اليه . اختلاف القول في تلقيبه بالمبرد)

محمد بن يزيد . . . ابو العباس الازدي ثم الثمالي المعروف بالمبرّد . . . كان من ابخل الناس بكل شيء . وبلغه ان ابا عبيدة بن المثنى قال لا يكون نحوي شجاعاً . قيل له وكيف . قال ترونه يفرق بين الساكن والمتحرك ولا يفرق بين الموت والحياة . فقال وانا اقول لا يكون نحوي جواداً فقيل له وكيف ذلك . قال ترونه يفرق بين الهمزتين ولا يفرق بين سبب الغنى والفقر . يريد ان الإمساك سبب من اسباب الغنى والعطا سبب من اسباب الفقر . وقال ما وضعت بجذاء الدرهم شيئاً قط الا رجح الدرهم في نفسي عليه . هذا مع سعة كان فيها ووجد . وكان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد في الامساك وفوقه في السعة . غير ان المبرد كان يسأل سؤالاً صراحاً . وكان ثعلب يعرّض ولا يصرّح

قال ابو بكر التاريخي ولولا اني اكره ان اكون عيّاباً للعلماء خاصة لاخبرتك عنهما (عن ثعلب والمبرد) من الاخبار التي تزيد على اخبار محمد بن الجهم البرمكي والكندي وخالد بن صفوان والاصمعي في الإمتاع . وهو من لم يأكل عند احد في عصرنا شيئاً قط ولا رآه احد يأكل ولا يشرب ولقد كان عفا الله عنه وعنا معه في المنزل من اقاربه سكان . فسألناهم عن خبره في ماكله ومشربه فذكروا انه كان اذا اراد الاكل دخل البيت ورد الباب في وجهه او طرح الستر فلا يعلم احد منهم بشيء من امره

قال لما قُتل المتوكل بسرّ من رأى رحل المبرد الى بغداد فقدم بلداً لا عهد له باهله . فاختلّ وادركته الحاجة . فترصّى شهود صلاة الجمعة . فلما قُضيت الصلاة

اقبل على بعض من حضر وساله ان يفاتحه السؤال ليتسبب له القول. فلم يكن عند من حضر علم. فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفتر. يوهم بذلك انه قد سُئل فصارت حوله حلقة عظيمة وهو يصل في ذلك كلامه. فتشوّف ثعلب الى الحلقة. وكان كثيرًا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم. فاذا بصر بهم ثعلب ارسل من تلاميذه من يفاتشهم فاذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم. فلما نظر ثعلب الى من حول المبرد امر ابراهيم بن السري الزجاج وابن الخائك بالنهوض. وقال لهما قُضّا الحلقة. ونهض معهما من حضر من اصحابه. فلما صاروا بين يديه. قال له ابرهيم السري اتأذن لي اعزك الله في المفاتشة. قال المبرد سل عما احببت. فساله عن مسألة فاجاب فيها بجواب اقنعه. فنظر الزجاج في وجوه اصحابه متعجباً من تجويد المبرد للجواب. فلما انقضى ذلك قال له ابو العباس اقنعت بالجواب فقال نعم. قال فان قال لك قائل في جوابنا هذا كذا ما انت راجع اليه. وجعل ابو العباس المبرد يوهن جواب المسألة ويفسده ويمثل فيه. فبقي الزجاج سادرًا لا يحير جواباً. ثم قال ان رأى الشيخ اعزه الله ان يقول في ذلك. فقال فان القول على نحو كذا. فصحح الجواب الاول واوهن ما كان افسده به. فبقي الزجاج مبهوتاً. ثم قال في نفسه قد يجوز ان يتقدم له حفظ هذه المسألة واتقان القول فيها. ثم سأله عن مسألة ثانية ففعل المبرد فيها بنحو فعله في المسألة الاولى حتى والى بين اربع عشرة مسألة يجيب على كل واحدة منها بما يقنع ثم يفسد الجواب ثم يعود الى تصحيح الجواب الاول. فلما رأى ذلك الزجاج قال لاصحابه عودوا الى الشيخ فلست مفارقاً هذا الرجل ولا بد لي من ملازمته والاخذ عنه. فعاتبه اصحابه وقالوا تأخذ عن رجل مجهول لا يُعرف اسمه وتدع من قد شهر علمه وانتشر في الآفاق ذكره. فقال لهم لست اقول بالذكر والحصول ولكني اقول بالعلم والنظر. قال فلزم المبرد وسأله عن حاله فاعلمه برغبته في النظر وانه قد حبس نفسه على ذلك الا ما يشغله عن صناعة الزجاج في كل خمسة ايام من الشهر فيتقوّت بذلك الشهر كله. ثم اجرى عليه في الشهر ثلاثين درهماً. وامره المبرّد باطراح كتب الكوفيين. فلم يزل ملازماً له وآخذًا عنه حتى برع بين اصحابه. فكان المبرد لا يقرئ احدًا كتاب سيبويه

حتى يقرأه على الزجاج ويصحح به كتابه. فكان ذلك اول رئاسة الزجاج . . .

وقد اختُلف في تلقيبه بالمبرد فقيل سببه ان صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة فكره ذلك فدخل الى ابي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي بطلبه. فقال له ابو حاتم ادخل في هذا يعني غلاف مزملة فارغاً. فدخل فيه وغطى رأسه. ثم خرج الى الرسول فقال ليس هو عندي. فقال أخبرت انه دخل اليك . فقال ادخل الدار وفتّشها. فدخل وطاف في كل موضع في الدار ولم يفطن لغلاف المزملة. ثم خرج فجعل ابو حاتم يضحك وينادي على المزملة: «المبرّد. المبرّد» وتسامع الناس بذلك فلهجوا به. وقيل ان الذي لقبه بهذا شيخه ابو عثمان المازني

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366)

لغة الحضارة

نعني بلغة الحضارة مجموع الالفاظ والعبارات والمصطلحات التي طرأت على لغة البداوة بعد الاسلام . بين معرّب ، ودخيل ، ومولّد ، ومستحدث ، ومستعار . كالتي عُني العالم الهولاندي دوزي بجمعها في كتابه الذي دعاه « تكملة المعاجم العربية » . وقد دلّنا طول البحث والتنقيب في كتب الادب والتاريخ على ان لها هنالك اشباهاً جمة ونظائر فاته استدراكها . يجدها اليوم كل من شاء ان يتتبعها في مصنّفات السلف ، ولا سيما ما لا يزال مخطوطاً منها حتى سقوط دولة المماليك . ومع اننا لسنا من المتخصصين لمثل هذه الدروس ، رأينا من باب المشاركة في الخدمة ان نتقرّب الى القرآء — وما اكثر عشاق اللغة بين الكتاب عندنا ! — ونذكر لهم مرّة بعد أخرى ما يمرّ بنا عفوًا اثناء مطالعاتنا من امثال هذه الالفاظ الطارئة . نوردها على هيئتنا رجآء الاصابة في ما نختاره منها ؛ مع الاقتصار على ما نرى فائدة واستاعاً في الاشارة اليها . لصلاحية قسم منها للاستعمال بالمعنى الذي دلّت عليه قبلاً ؛ او الامكان سدّ عوز ما من حاجات الاقلام في هذا العصر ؛ او لاعانتها على وصف اطوار الحضارة العربية السابقة . وسنعزّز كل رواية منها بشهادة الكتّاب والشعراء والمؤرّخين . وغنيٌّ عن البيان ما في مثل هذه التنبيهات والاستدراكات من المادّة والمؤونة لتذييل داوويين اللغة ؛ وتأريخ الدخيل والمولّد من اوضاعها ؛ تمهيدًا لجمع معجم شامل لكل الكلمات والعبارات المستحدثة في حضارة الاسلام .

التحايا

(فصل مقتطع من كتابنا المخطوط « الديارات النصرانية في الاسلام »)

التحايا جمع تحيّة بمعنى التحفة والطرفة . وهي غير واردة على هذا الوجه في معاجم اللغة . وفي الشابشتي في كلامه على دير رومالس (رومانس) « حضر من احداث الموضع من كان يقضي لنا الحاجة ويجيئنا بالطرفة والتحية »[1] . واكثر ما تطلق على الطاقة من الازهار والرياحين والفواكه التي يُحيّا بها الندماء ، وتُزيّن بها مجالس الشراب ؛ ومنها بيت الثرواني :

وان امرأً حيّاني تحيّةً فلا تمدُوا ريحان قلّابة النسّ[2]

---

١) كتاب الديارات للشابشتي ، ص ٧٦ ، نسخة برلين

٢) معجم البلدان لياقوت ، طبعة ليبسك ، ٤ : ١٥٦

ونظيره قول ابي الفرج البَبّغاء في النرجس:

ونرجس لم يمدُّ ميضُه الـ كأس، ولا اصفره الراحا
كأنما تُهدي التحايا بـه لفتاً الى الارواح ارواحا (١

وفي هذا المعنى لابي اسحق الصابئ يصف مجلس انس شبّهه بالمعركة:

كأن رجوم نحاباهم سهامٌ على الجيش منها نثار (٢

وفي الاغاني لابي الفرج الاصبهاني «قالت رَيّق: كنت يوماً بين يدي الرشيد وعنده اخوه منصور وهما يشربان. فدخلت اليه خلوب جارية لعليّة (اخت الرشيد) ومعها كأسان مملوءتان وتحيّتان. ومع خادم يتبعها عود فنقرتها قائمة، والكأسان في ايديها، والتحيتان بين ايديها»(٣.

ولمحمد بن بشير يهجو يوسف بن جعفر بن سليمان:

ريحانهُ بدم الشباب ملطَّخ، وتحيّة الندمان لطم العين (٤

ولما خرج المأمون ونزل الدير الاعلى بالموصل، وجاء عيد الشعانين، «زُيّن الدير في ذلك اليوم باحسن زيّ وخرج رهبانه وقسّانه الى المذبح وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة. فرأى المأمون ذلك فاستحسنه. ثم انصرف القوم الى قلاليهم وقربانهم. وعطف الى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وقتهم وبايدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب. فادناهم وجعل يأخذ من هذا ومن هذه تحيّة. وقد شُغف بما رآه منهم»(٥.

ومن شواهد اطلاق التحايا على هدايا الفواكه والتفاح قول ابي خالد الكاتب، وقد اجتاز بدير محلّى، ومعه ابو زرعة الدمشقي الشاعر: «ثم اتانا الرهبان بتحايا الورود والياسمين والتفّاح واخرجوا الينا شراباً عتيقاً في نهاية الصفاء والرقة»(٦. ومثله ما رواه ابن عبد ربّه عن الفضل بن يحيى ان طفيليّاً من

١) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر، ١: ٢٢٨
٢) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر، ٢: ٢٢٧
٣) الاغاني، طبعة بولاق، ٩: ٨٧–٨٨
٤) الاغاني، طبعة بولاق، ١٣: ١٣٤
٥) الديارات للشابشتي، ص ٢٦ ٦) مسالك الابصار للعمري، ص ٢٢١

اهل المدينة دخل عليه وبيد الفضل بن يحيى تفاحة « فالقاها اليه وقال : حيّاك الله يا مدنيّ . فلزمها واكلها . فقال له : شؤم عليك يا مدني ! أتأكل التحيات ! »[1].

وكان في الحيرة غلمان يرتزقون من حمل الفاكهة وبيع التحيّات. منهم حنين ابن بأوع المغنّي المشهور «قيل كان لطيفاً في عمل التحيّات فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت القيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطرّبين الى الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه استحلوه واقام عندهم وخفّ لهم»[2].

وقد يراد بالتحيّة مجرد الهديّة من الطرائف والنفائس : « حدّث سعيد بن يوسف قال : كنت اتقلد خزائن الكسوة. وكان اذا امر المعتز ليونس (ابن بغا) بشيء. اخذت له اجلّ ما في الخزائن واحسنه . . . فقلت له يوماً : يا سيدي انا عبدك وموفر لمالك وانت تشرّف مسرورًا المعتصمي بالتحيّة الحسنة مما يكون بين يدي امير المؤمنين . وانا فلا تشرفني بمثل ذلك ؟ فقال الليلة نوبتك »[3]

وكان يقال قديماً لمثل هذه التحيّات التي يُزيّن بها مجالس الشراب العبارة والعبار . وفسّروا بها في احد الوجهين قول الاعشى :

فلما اتانا ، بُعَيد الكرى ، سجدنا له ورفعنا العبارا (٤)

قال ابن منظور : « العبار هنا الريحان يُزيّن به مجلس الشراب وتسميه الفرس مبوران. فاذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه بايديهم وحيّوه به »[5]. ومن هنا يعلم ان عادة اتخاذ الورود والرياحين للشرب عليها والتحيّة بها كانت في الجاهلية وسبقت الاسلام . ومنها قول النابغة الذبياني في مدح آل جفنة الغساني :

رقاق النعال ، طيّبٌ حُجزاتُهم ، يُحيّون بالريحان ، يوم السباسب

اي يوم الشعانين . ولاعشى قيس في قصيدته « ودّع هريرة ان الركب مرتحلُ » ابيات ذكر فيها غدوّه الى الحانوت اي بيت الخمّار ،

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

١) العقد الفريد ، المطبعة الازهرية ، مصر ، سنة ١٣٢١ ، ٣ : ٢٧٢
٢) الاغاني ، طبع الدار ، ٣ : ٢٤٥ .
٣) الديارات للشابشتي ، ص ٧٣
٤) نكت الهميان للصفدي ، ص ٧
٥) لسان العرب ٦ : ٢٨٢

وقال :

نازعتهم قُضُب الريحان ، متكئاً ، وقهوة مزّة راووقها خضل (١

وله ايضاً يصف مجلس الشراب :

وشاهدنا الورد ، والياسمين ، والسمسات بقسأبها (٢

وفي حديث حسّان بن ثابت انّ جبلة بن الايهم كان « اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والورد والياسمين واصناف الرياحين »(٣).

ولابن سيحان من شعراء الاغاني :

أسبي أعاطيه كأساً لذّ مشربها ، كالمسك خُفّت بنسرين وريحان (٤

ولم يكن مثل هذا التجمّل بالرياحين والازهار ، وطرحها على بساط المدام ، نصيب الاغنياء والمترفين فقط ، بل اصبح في الاسلام رسماً للفتوّة لا يخلّ به اشقى الفقراء والمعدمين . روى ابو الفرج الاصبهاني قال : « دعا الاخطلُ شاب من شباب اهل الكوفة الى منزله فقال له : يا ابن اخي ، انت لا تحتمل المؤونة وليس عندك معتمد . فلم يزل به حتى انتجعه . فقال : يا شقراء . فخرجت اليه امرأة . فقال لامه : هذا ابو مالك قد اتاني . فباعت غزلاً لها واشترت له لحماً ونبيذاً وريحاناً . فدخل خُصاً لها . فأكل معه وشرب وقال في ذلك شعراً »(٥).

وفي حديث علي بن امية قال : « دخلت يوماً على عمر الميداني وكان له بقّال على باب داره ينادمه ولا يفارقه ويقارضه اذا احتاج ... فقال لنا عمر : معي اربعة دراهم تعطوني منها لعليق حماري درهماً . والثلاثة لكم فكلوا بها ما احببتم . وعندي نبيذ وانا اغنيكم والبقال يحضرنا من الانقال اليابسة ما في حانوته . فوجهنا بالبقال فاشترى لنا بدرهم فاكهة وريحاناً وجاءنا من حانوته بجوانيح السكباج ونقل »(٦).

١) الاغاني ٨ : ٩٩

٢) التذكرة الحمدونية ، باريس رقم ٣٣٢٦ ، ص ١٠٥

٣) التذكرة الحمدونية ، باريس رقم ٣٣٢٦ ، ص ١٠٧

٤) الاغاني ، طبعة الدار ، ٢ : ٣٦٠

٥) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٧ : ١٨٥

٦) الاغاني ٢٠ : ٦٦

وقد بلغت عادة التحيّات في الاسلام الغاية من البذخ والترف. فكان الخلفا. والوزرا. ووجوه الدولة يتفننون في تزيين مجالس شرابهم باطايب الفواكه ونوادر الرياحين والورود ، ويغالون في الانفاق والتبذير ، كما حكاه ابن حمدون ، وهو شاهد عياني ، قال : « كنا نشرب مع الراضي بالله يوماً في مجلس مغتنى بالفاكهة الحسنة الفاخرة . فعَرض بالجلوس فقال : افرشوا لنا المجلس الفلاني واطرحوا فيه ريحاناً ونيلوفرًا فقط طرحاً فوق الحصر بلا اطباق ولا تعبية في مشامّ كما تفعل العامّة . وعجّلوا ذلك الساعة لننتقل اليه. قال فلم تكن الّا لحظة حتى قالوا له: قد فرغنا من ذلك . فقال لنا : قوموا. فقمنا معه. فلما رأى المجلس قال للشرابيّة غيّروا لون هذا الريحان بشيء من الكافور يُسحق ويُطرح فوقه فليس هو مليح هكذا . قال : فاقبلوا يجيئون بصواني الذهب فيها الكافور الرباحي المسحوق ارطالًا ويطرح فوق الريحان وهو يستزيدهم الى ان صار الريحان كالمغطى ببياض الكافور وكأنه ثوب اخضر قد نُدف عليه قطن رقيق . او روضة سقط عليها ضرائب الثلج. فقال حينئذٍ : حسبكم. قال : فقدرت ما استعمل من الكافور كان اكثر من الف مثقال بشيء كثير. فشربنا عليه. فلما قام امر بنهبه . فاخذ غلماني منه مثاقيل كثيرة لانهم كانوا في جملة الخدم والفراشين والغلمان الذين نهبوا ذلك »[1].

وروى القاضي ابو علي التنوخي قال : « شاهدنا ابو محمد المهلّبي في وزارته وقد اشترى في ثلاثة ايام متتابعة وردًا بالف دينار فطرحت في بركة عظيمة كانت له في دار كبيرة تعرف بدار البركة . وشرب عليه ونُهب . وكان في البركة فوّارة حسنة فطرح الورد فيها وفرشه في مجالسه . وكان لذلك شرح طويل .

وشرب ابو القاسم بن ابي عبدالله البريدي بالبصرة على ورد بعشرين الف درهم في يوم واحد على رخصه هناك واسترخاص السلطان لما يشتهيه »[2].

ومن اغرب ما كان يُتخذ من التحايا في مجالس الشراب والحانات قُضُب

١) نشوار المحاضرة للتنوخي ، ص ١٤٤–١٤٥

٢) نشوار المحاضرة ، ص ١٤٧

كانت تجعل خلف آذان السقاة والشاربين او تُعقد منها اكاليل توضع فوق رؤوسهم . ولذلك قال ابو دلف العجلي يفتخر :

يوماً تراني على طِرْ ترهبني الأجبلُ الرواسي
ويوم لهو احث كأساً ، وخلف اذني قضيب آس (١

ومثله قول ابن المعتز في وصف ساقٍ :

وطاف بها ساقٍ اديبٌ بمقلة كخنجر عيّار صناعته الفتك
وحفّل آذريونةٌ فوق اذنه ككأس عقيق في قرارتها مسك (٢

وله ايضاً في الساقي المكلّل بالآس المرصّع بصنوف الريحان :

عليه اكليل آس ، فوق مفرقه ، قد رصّعوه بانواع الرياحين (٣

وقد جمع ابو نواس بين « تحيّات الندامى » و « أكاليل الرياحين » فقال :

الذّ واشهى من قراع الكتائب مصافحة الطاسات من كل جانب
واخذ تحيّات الندامى ، وردّها بترحيب انس من حبيب وصاحب
ولبس اكاليل الرياحين بينهم وإصاخة آذان الى نغم ضارب (٤

وله ايضاً في الاكليل او التاج :

كأن إكليله تاج ابن مارية ، اذ راح منتصباً بالورد والآس (٥

ومثله قوله في وصف ساقٍ :

بدور بها ظبيٌ غريرٌ مدلّلٌ ... من الريحان منك الفرائض (٦

وله في ريحانة الاذن :

أحسنُ عندي من انكبابك باكياً ... ، منحنياً به على وتد
وقوفُ ريحانة على أذن ، ... وميلُ كأس الى فم بيد (٧

ونظيره قوله في ورد الآذريون :

---

١) مروج الذهب ، حاشية على الهامش ج ٣ ص ٢٠٤
٢) ديوان ابن المعتز ، باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٢
٣) ديوان ابن المعتز ، باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٧
٤) ديوان ابي نواس ، باريس رقم ٣٨٣١ ، ص ١٠٥
٥) ديوان ابي نواس ، طبعة مصر ١٨٩٨ ، ص ٣٠٧
٦) ديوان ابي نواس ، طبعة مصر ١٨٩٨ ، ص ٣٠٧
٧) ديوان ابي نواس ، خزانة الاسكوريال رقم ٤٥٦ ، ص ١٠٥

يبدَيْ ساقٍ عليه حلةٌ من ياسمين
وعلى الاذنين منه وردتا آذَريون (١

ومن اصدق تشبيهات التحيَّات في « اكاليل الرياحين » قول ابي عثمان الخالدي في وصف مجلس أنس حضره :

والنمرُ تجلى على خطَّاجها ، فترى عرائس الكرم قد زُفَّت لازواج
وكلّنا من اكاليل البهار على رؤوسنا ، كانوشروان في التاج (٢

وفي لسان العرب ان مثل هذه الاكاليل التي اتخذها العرب عن العجم كانت تسمى العمار(٣) .

وقد اشتهر الواثق بالله بحبّ المواخير ، وعقده حانتين احداهما في دار الحُرَم والاخرى على الشطّ . فلما فرغ منهما امر باحضار المغنين والجلسا . والدنان « وان يُوضع على رأس الحضور اكاليل الآس وما اشبه من الرياحين »(٤) .

ومما تقدّم تتبيّن حاجة الرهبان الى الإكثار من زراعة الورد والريحان والفواكه لبيعها في التحايا واصناف النقول في الحانات اللاحقة بالديارات .

١) ديوان ابي نواس ، طبعة مصر ، ص ٢٣٩
٢) يتيمة الدهر ، طبعة مصر ، ٢ : ١٨٦
٣) لسان العرب ٣ : ٤٢٠
٤) مسالك الابصار للعمري ، ص ٢٦٤

للزيادة في الدفاع عنه، وهو من اصل مخلصي ، واغتنم فرصة نشر هذه الفتوى ، وهي من قلم رئيس الرهبان المخلصيين وقتئذ، ودسّ فيها، بين الاساقفة الملكيين الموقعين عليها ، اسمَي « اغناطيوس الحلبي مطران حمص . وبراسيوس مطران حلب » — وكلاهما لا وجود لهما في نسخة الاصل — ليدرك بذلك وطره من اثبات إجماع الاساقفة الكاثوليكيين سنة ١٧٢٤ على الاعتراف بالبطريرك المخلصي وتصحيح تنصيبه .

وقد رأينا ان ننشر ههنا رسم الفتوى المذكورة ، كما صورناها في خزانة مجمع نشر الايمان . ليقابلها من اراد على رواية حضرة الاب قسطنطين . ويتحقق بام عينه فرق ما بينهما. ويحكم بنفسه على طريقة بعضهم في افساد التاريخ وتضليل الناس .

ومن اغرب ما هنالك ان الطابع في كلامه على هذا الاثر وآخر قبله قال بلفظه : « كان بعزمنا ان ننقل الاثنين بصورتهما الاصلية بالحفر على الزنك لولا انه لطول الزمان حال لون الكتابة فيها حتى لا تظهر جليًّا بالحفر » (ص ١١٤) وقد صورناها نحن بغاية السهولة والجلاء ، كما يراها القارئ .

وهذا مثال من خطة حضرة الاب في الوفاء « بذمة النقل » كما يقول . ورعاية الآثار القديمة وطبع المخطوطات. فليؤمن بها من يشاء !

تاريخ ابن الفرات

المجلد التاسع : الجزء الاول

عُني بتحرير نصه ونشره الدكتور قسطنطين زريق
في المطبعة الاميركانية . بيروت ، سنة ١٩٣٦

للدكتور قسطنطين زريق ، احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية ، فضل يجدر بالذكر والشكر. لاقدامه على طبع تاريخ ابن الفرات دون ان تهوله كثرة الاغلاط والتحريفات في مسودته ، ووفرة التلم والبياض ، وغلبة اللهجة العامية على انشائه ، وتعدّد مجلداته وكونها فريدة لا نسخة ثانية لها تُعارَض بها. ومعلومٌ ما في ايسر ذلك من الخطب الذي يثبّط العزائم ويقصّ

جناح الرغبة. وقد آثر ان يبدأ بالمجلد الاخير لان المصنف عاصر الحوادث فيه ونقلها نقل شاهد عيان ؛ او راوٍ لها عن بعض من شهدها من الثقات. وقد وعد ان يعقد جزءاً خاصاً يبسط فيه خلاصة ابحاثه وآرائه في المؤلَّف والمؤلِّف. فنسلك عن الكلام عنهما اجمالاً. ونحصر درسنا في هذا المجلد وحده الى ان يتسنى للاستاذ القيام بما رهن قلمه فيه ، ويتحفنا بمكنون علمه ونتائج رويّته واستقرائه.

ويؤخذ من التوطئة أنه اعتمد في تحقيق بعض اخبار الكتاب وتراجمه ، وتسديد اسآء اعلامه ، على بضعة مطبوعات ذكرها ، ومخطوطين اثنين : إنبا الغمر لابن حجر العسقلاني ، والضوء اللامع لشمس الدين السخاوي. وهما كل ما نالته يده ، وهو في بيروت ، من الاصول الخطّية التي كانت مظنّةً لمعارضة اخبار ابن الفرات وتصحيح تراجمه. واذا نظرنا الى حسن بلائه في هذه الخدمة ، يحقّ لنا ان نهنئه لبلوغه الكفاية ووقوفه فيها موقفاً محموداً. ولكننا نأسف لانه لم يتيسّر له مراجعة نسخة المنهل الصافي لابن تغري بردي التي عرفها في القدس. ليستعين بها على تقويم ما انآد في خط ابن الفرات ورسمه. او أشكل عليه من كتابة الاسآء التركية المغولية التي كانت غالبة على القاب المماليك . وكان ابن تغري بردي عارفاً بها اليفاً لها ، يمتّ الى اقوامها بصلة ونسب. وكتابه موضوع في ست مجلدات لاستيفاء تراجم رجال دولة المماليك. ومع كل ما بذله الاستاذ من العناية والجهد في تصحيح هذه الأعلام الاعجمية . لا يزال في المجلد منها مواضع للنظر والاستدراك. ولا نشكّ ان ابن الفرات هو الذي شوّش جانباً منها واسآء قراءتها فاسآء تأديتها بقلة درايته لها. وهو احياناً يروي الاسم الواحد منها على صور شتى احدها اشبد خطأً من الآخر ككتابته : عقبة ايلا (ص ٣ س ٩) وعقبة ايليا (ص ٤٩ س ١٠) بدلاً من ايلة. وانبوبة (ص ٤٢ س ١٢) عوضاً عن انبابة ، مولد الشيخ اسمعيل الانبابي. وتسميته الامير ناصر الدين محمد بن «ليلي» (ص ١٩٢ س ٢٣) في مكان محمد بن العادلي كما في ص ١٩٢ س ٧. ولما ذكر ابن عم السلطان الظاهر برقوق رسم اسمه مرة شمس الدين قجماس بالجيم (ص ١٨٦ و٨٣) ومرة قشماس بالشين (ص ٨٤ و٢٠٨) . ومثله تلقيبه دائماً المماليك السلطانية بالخاسكية بالسين بدلاً من الخاصكية بالصاد . وهي نسبة فارسية

رسولًا مصلحاً للغة، يقوّم ما انآد منها بجهل رجال الدين. ولاسيما ان ليس في متن « تاريخ الشام » اقلّ غموض يحول دون فهم المراد منه ، ويدعو الى تبديل فيه او تنقيح . وزى من العبث المحض ، بل من الفضول ، ما تكلفه حضرة الاب من تحريره وتحريره. بعد ان نادى في المقدمة انه تركه وشأنه. ورهن قلمه بنقله كما ألفاه بناية الامانة . وهذه هي المرة الثانية التي يَعِد فيها حضرة الاب ولا يفي . وما كان اغناه عن هذه التبعة لو اقرّ في توطئته انه نشر الكتاب بتصرّف قليل .

وقد عددنا في مقدمة المؤلف ، التي دعانا الطابع الى مقابلتها ، خمسة عشر موضعاً ونيفاً تصرف فيها بين تنقيح وتحويل ، وزيادة ونقصان. وهي ، على كونها كلها يسيرة غير ذات شأن ، لا تخرج عن انها عبث بالاصل واستباحة لحرمته ؛ ولاسيما ان المعنى قبلها كان جلياً بيّناً . ومع ما تولّانا من العناء والملل ، وما اضمناه من الوقت الثمين ، لم نألُ جهدًا في معارضة سائر الكتاب صفحة صفحة وحرفاً حرفاً. ولا نخشى ان نقول انه لا توجد فيه ورقة واحدة سلمت من آفات قلم الطابع ، لغير داعٍ موجب ، ولا حاجة ماسة الى تغيير . لوضوح المعنى في الاصل دون اقلّ اشكال .

ولو اردنا ان نسرد كل هذه المواضع بالتفصيل لضاقت بنا الصفحات ، وغلب السأم على القراء . لان الخوري قسطنطين كلف قلمه تهذيب عبارة المؤلف على عاميتها . فاكثر فيها من ردّ المهموز ، وفتح المنصرب ، وحذف الضمير من الفعل اذا اجتمع فيه مع الفاعل الظاهر ، على لغة « اسرّوا النجوى » ؛ وتتبع جانباً من اللحن والسقطات . فاطّرح ما شاء ، وقوّم ما عنّ له تقويمه بغير استيفاء . بحيث تغيّرت طريقة المؤلف وظهرت في حلّة اجدّ من ثوبها الاول . وسنذكر امثلة على كل ذلك ليظهر مقدار عبث الطابع بالاصل المصوّر لديه .

واول ما نحبّ ان نبدأ به وننبّه عليه تصرّفه الغريب بالعبارات والأدعية التي تتبع عادة اسماء الجلالة ، مثل قوله « تعالى . وجلّ جلاله » وقد عدّدنا عشرة مواضع أسقطها او ابدل جملة « الباري تعالى » بكلمة « الله » وحدها ، او اطّرح اسم الله بالمرة. وقريب من ذلك لفظة « آمين » حذفها اربع

مرار. ولا نفهم لِمَ ضاق صدره بهذه المصطلحات الدينية، وهو لا يكاد يُصدَّق من كاهن نظيره.

ومن الكلم العامية التي ابقى عليها كلمتان حظيتا لديه وهما «هلقدر» و «لِسّاهم». بخلاف «هيك» و «ايش» (ص ١٨ و١٠٣) فانه غضب عليهما ووضع في مكانهما «هكذا» و «ماذا». وكان قبلًا في كتاب «النخبة» قد غيّر لفظة «ايش» لظنه انها عامية مبتذلة. ولا بأس ان نعرّف حضرته انها قد وردت مرارًا في الشعر والنثر. قال الحسن بن هانئ:

كيف اصبحتَ، لاعدمت صباحًا ... صالحًا، يا محمد بن قريش؟
أنسَ نفسي، كيف استجزت اطراحي ... ذمّ، سيدي، وذاك لايش؟ (١)

ولابن الحلّ يهجو واعظًا:

ويقول: ايشَ اقول من حَصَرٍ به ... لا لازدحام عبارةٍ وكلام (٢)

ومن الابيات المنسوبة لمجنون بني عامر:

قالت: جُننتَ على ايش؟ فقلت لها: ... الحب اعظم مما بالمجانين (٣)

وليزيد بن الطثرية في احدى الروايات:

وكنتُ، اذا ما جئت، جئت امنّة، ... واهبت عذلي فايش اقول؟ (٤)

واما في النثر فقد كثر عيشها في كتب الادب والتاريخ. قال في الاغاني «كان العتابي جالسًا ذات يوم، فمرّ به بعض جيرانه. فقال: ايشَ ينفع العلم والادب من لا مال له»(٥). وذكر سعيد بن زياد ان المأمون لما دخل دمشق أُتي بالكتاب الذي كتبه رسول الله (صلعم) فقال: «اشتهي ان ادري ايشَ هذا النشاء على هذا الخاتم»(٦). وروى المقريزي ان الملك الجواد قلق من ملك دمشق. وقال: «ايش العمل والملك؟ بار وكتاب احبّ اليّ من هذا»(٧) وهلمّ جرًّا.

(١) ديوان ابي نواس، حوادث الفاتيكان رقم ٦٥٦، ص ١٤٦
(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ١: ٥٠٤
(٣) الاغاني ١:
(٤) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤: ١٣٩
(٥) الاغاني ١٢:
(٦) الكامل لابن الاثير ٦: ١٤٦
(٧) السلوك للمقريزي، باريس ١٧٢٦، ص ٨٧

ومما اساء في اصلاحه ، وهو في الاصل صحيح ، بعض الاعلام ؛ وطائفة غير قليلة من العبارات والكلم المفردة . نذكر منها المطبوع مع رقم الصفحة ونتبعه بالاصل المصوّر عن نسخة برلين :

فمن الاعلام :

ص٥	ابن جوبان ارغلي	في الاصل اوغلي بالواو . اي ابن بالتركية
٧	عبدالله الايضلي	« الايضلي اي الايديلي ، من مدينة ايدين
٩	واحد نصراني كورجي	« كور كجي . وبيت الكور لجي كان معروفاً بدمشق ، واليوم بالقاهرة . والكلمة تركية بمعنى الفرّاء
١٠	ابن القلاني	« القلاقسي . وممن عُرف بهذا الاسم بدمشق احمد بن محمود القلاقسي الشاعر المتوفى سنة ١١٧٣ (١٧٥٩م) والقلاقسي نسبة لقلاقس قرية من نواحي بلدة حمص(١
١٨	محكمة الدهناتية	« الدهناتية . وهذه المحكمة كانت بدمشق في السوق المعروفة قديماً بسوق الدهناتيين بين سوق السلاح والبزوريين . كانت تسل فيها اصناف الادهان من دهن اللوز وغيره . (٢
٢٤	قصل الانكليز ريشاري	« ريشاردس
٢٦	ظهر النمر	« ظاهر ، وهو المشهور الشائع على الالسنة
١٠٠	حسا ابن موسى الله وردة	« الله وبردي . وهي جملة تركية ، معناها : الله اعطى . وهذا الاسم معروف بدمشق .

ومن العبارات والكلم المفردة ، وهي كثيرة ، نجتزئ منها بما يأتي على طريق التمثيل :

ص٦	لا تحمى	في الاصل لا تمد
٨	سابر البلاد	« باقي
١٢	بسلوا	« يغلوا
١٥	اعطاه شمة وتل وقرش	« وقرص
١٦	يعود	« يرجع
١٩	رحان محلين تنّا (بالياء المفردة)	« تبنًا (بالياء المثناة)
٢٠	يعتمد عليه	« يركن اليه

(١) سلك الدرر للمرادي ١ : ١٦٧

(٢) نزهة الرفاق في شرح حال الاسواق ليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد . من مخطوطات خزانتي

ص٢٢	اخذت	في الاصل اخدمت
٢٩	ما فطه الشعب	« الجمهور
٤١	البحث الثاني	« المطلوب
٥٤	لذانك الشيخين	« لاجل ذينك
٥٤	مهاب	« مرهوب
٦٤	غلا شديد	« عظيم
٦٧	هذه السنة كانت غزيرة المطر	« غزيزة، بزايين، اي قليلة. بدليل قوله فيما بعد: « صار في الصيف احتراق من قلة المياه »
٦٦	القانارات	« القناديل، جمع قنار، وهو مصباح من قرطاس او نسيج كالانبوبة يُستضاء به
٨٤	وقع من شرّاقة داره	« مشراقة (بدلاً من شَرّاقة) والمشراقة، في اصطلاح اهل دمشق، موضع السطح الذي تشرق عليه الشمس
٨٧	اربعة جباة وكُلّا (بالضم والتشديد)	« جباة وُكَلا، جمع وكيل
١٠٠	نطق بشهادة الاسلام	« اسلم. ولا ندري ماذا انكر حضرة الاب من هذا الفعل، وهو اوجز، واعرف، واشبه بقلم الخوري بريك.
١٠٣	قُنّع	« قِلاع
١٠٨	الاسرى	« الاسارى

وهلم جرّا. وقد اعفينا القارئ من نظائر واشباه لها كثير.

ولا يخفى على احد ان كل هذه التغييرات هي اعتباطية لغير علة داعية. وبعضها خطأ صريح. فما كان ضرّ حضرة الاب لو عدل عنها وابقى الاصل على حاله، وكفى نفسه مؤونة التبعة والملامة. ومن هذا القبيل عدم فهمه قول بريك: « شاهدته خوزق اثنين من العرب » فوضع مكان شاهدته « والشاهد لذلك » (ص٧) وانما اراد بريك المشاهدة لا الشهادة. ومثله قول الاصل: « باب الكنيسة كان كُهنا وواطي » فكتب بدله « كهفا ». وما ندري كيف يكون الباب كهفا. والكُهنا، في اصلاح اهل دمشق، هو القديم الشنيع القبيح المنظر. واللفظة من اصل فارسي.

واما منا صفحتان كاملتان استوفينا فيهما المواضع التي زاد فيها ونقص، دون اقل تحرّج. نكتفي منها بالتنبيه على موضع واحد لا يخلو من الفائدة التاريخية.

وهو قول بريك ، حين ذكر وصول منشور البابا بابطال بطريركية اغناطيوس جوهر : « فبلغ الخبر الى البطرك فطاع رغماً » . فلم يتوقف الخوري قسطنطين، وضرب على الكلمة الاخيرة ، وطبع « طاع » فقط (ص ٨١). لرغبته في تبرئة البطريرك جوهر من كل وصمة وتهمة ، غيرةً على نسبته المخلصية . وقد اشتهر حضرة الاب ، مذ امسك القلم بيده ، بشدة محبته لرهبانيته الجليلة ، وحرصه الدائم على الدفاع عن كل مَن نشأ منها ، والمبالغة في تعظيمه بالحق والباطل. ومن الحب ما يعمي ويصمّ . فربما قاده الهوى الى التصرّف احياناً بنصّ الآثار القديمة ليستعين بها على تمجيد اسلافه وابائه . كما سنذكر شاهده قريباً.

ومن الفوائد اللغوية التي اضاعها ، بولعه الدائم بتغيير النصوص الاصلية ، عدة الفاظ وعبارات عامية من لهجة دمشق . لم ترق له فاستبدل بها لقلّة اكترائه لشهادتها. نذكر منها بعضاً على وجه التمثيل. مع البدل المطبوع في مكانها :

ص٨	وفى دينه	في الاصل	سدّ دينه
١١	يا حيفه ينعزل	〃	يا حيثه
١٥	رجل مهاب	〃	مهيوب
١٥	يتزوج	〃	يتجوز
١٨	آبار	〃	ابيار
٢١	حوائج وهدايا	〃	حوايج وتجملات
٢٤	نصرها	〃	نَصرَتها
٢٥	اسرى	〃	يُسَرا
٥٠	ابتدوا بالنهب	〃	النهبة
٥٢	الباقية	〃	الباتنة
٥٥	لبس غريب	〃	فزيع
٦٢	قدر بيضة الدجاجة	〃	قدّ
٧٠	رجل شجاع	〃	شجيع . (وهو صحيح في اللغة)
١٠٢	خب القفول والدرّيّة	〃	والدّرّيبة (اي عابري الدروب)

وقد يتفق لهُ ان يتعرض احياناً لتغيير بعض مصطلحات اللغة فيخطئ . كتعليقه على قول بريك مشيرًا الى احد قرصان البحر ، وقد نزل على صور ونهبها واسر بعض اهلها . قال : « وراح على حيّة » (ص ٣٥) فكتب الخوري

قسطنطين في الحاشية ما نصه: « الحِمى والحَمي بمعنى واحد ، وهو المكان الذي يحتمي فيه الانسان وغيره » . وانما هذا تفسير للحمى ، لا للحمية . ولا شك ان بريك نسخ هذا التعبير من كتب الاخبار الاسلامية . وهو يرد فيها بمعنى النجاة والسلامة . والمراد في الشاهد ان لصّ البحر نهب واسر وافلت سالماً دون ان يُدرَك .

ويؤخذ على الطابع إخلاله بوضع ترجمة للمؤلف . وقد اعتذر عنها بعذر هو اشبه بالاقرار بالعجز . وكان في ختام نسخة برلين نحو ست ورقات رُوي فيها خبر حريق كنيسة القيامة سنة ١٨٠٨ ، ولعله من قلم احد نساخ الكتاب . وقد حُذف من الطبعة دون اقلّ اشارة اليه في التوطئة . واستعيض عنه بملحقات شتى في معنى التاريخ الملكي منذ الانفصال . جرى فيها الخوري قسطنطين على شنشنته بالتصرّف بالمتن مرة بعد اخرى . عددنا منها في مشروح اضطهادات الروم الكاثوليك في حلب المرسل الى رومة (ص ١٢٨-١٤٢) زهاء اربعة اسطر اسقطها بتامها في ثلاثة مواضع . وقد استهلّ هذا الملحق بتغيير يوم وفاة البطريرك اثناسيوس الدباس ، وهو في الاصل ٢٤ تموز سنة ١٧٢٤ ، فجعله ٢٥ تموز ، خلافاً لكل الروايات . ومثل هذا الافساد في التاريخ ، وقد سبق له نظائر عديدة في طبع « النخبة » ، غريب جدًا ممن جعل همه البحث والتنقيب في صحة الارقام والسنين لنسبة الاخبار الى ازمنتها الحقيقية

واهمّ كل الملحقات المذكورة « فتوى في صحة بطريركية كيرلس طاناس » (ص ١٢٢-١٢٣) . وهي في الاصل المحفوظ في خزانة مجمع نشر الايمان لا تكاد تبلغ ستة اسطر ، في ما عدا التواقيع والاختام المثبتة في ذيلها . ومع ذلك فقد وجد الخوري قسطنطين في مثل هذا الضيق مجالاً للزيادة والنقصان في عشرة مواضع ، على غير طائل . وكان قد سبق له سنة ١٩٠٧ ان ردّ على مقالة لاحد الرهبان الحلبيين في مجلة « اصداء الشرق » الفرنسية[1] اشار فيها الى ضعف انتخاب البطريرك المذكور لانفراد اهل دمشق بانتدابه ، واقتصار ثلاثة من الاساقفة الكاثوليكيين على تنصيبه . فرأى حضرة الاب البيل الآن متسعة امامه

١) *Echos d'Orient* LX (1907) pp. 200-206

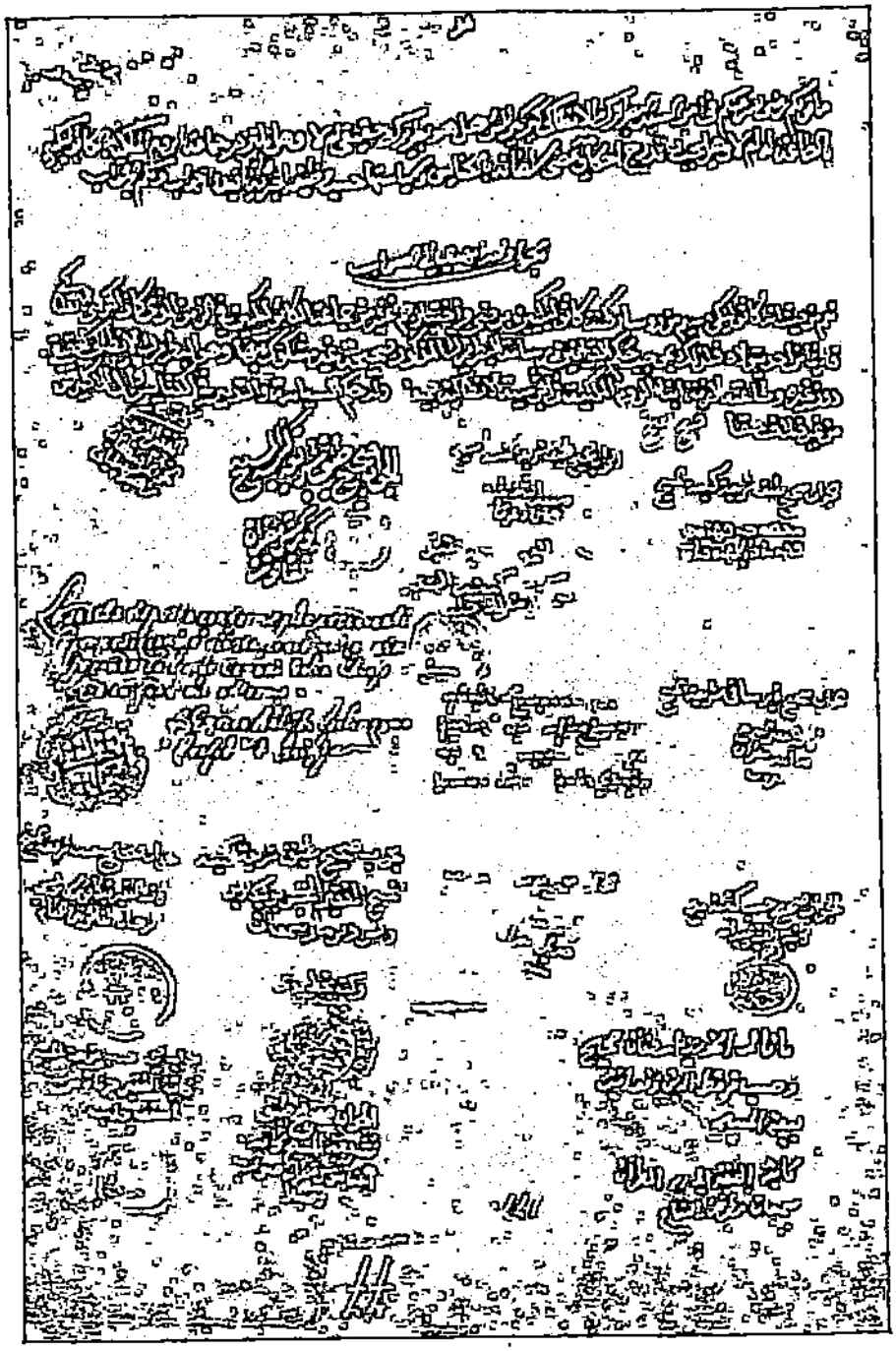

صورة الفتوى في صحة بطريركية كيرلس طاناس

باب التنبيه والاشراف

للامام المسعودي بهذا العنوان كتاب معروف نبّه فيه على ما فاته الكلام عليه في سابق كتبه من المباحث والاشارات . واشرف فيه على بعض الحوادث والاخبار التي شاء ان يلحقها بالاصول المتقدّمة له في التاريخ . وقد رأينا ان نستعير هذه التسمية لهذا الباب من المزانة ، حيثُ يتفق لنا درس بعض الكتب والمطبوعات التي نقف عليها في تاريخ الشرق وآدابه . وسنختار منها ما تتحقّق الفائدة في التنبيه عليه من المحاسن والمساوئ عملًا باحكام النقد العصري . ونلزم في كل منها قول الحق بغاية الانصاف والنزاهة ، دون تهيّب ولا مجاملة .

تاريخ الشام للخوري ميخائيل بربك

نشره وعلّق عليه الخوري قسطنطين الباشا المخلصي .

مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) سنة ١٩٣٠

لا نعلم أنه قام الى اليوم في الكنيسة الملكية بين رهبانها وقسّانها ومرسليها وسائر رجال كهنوتها من انقطع للبحث والتنقيب ، ووقف حياته على الدرس والتصنيف في التاريخ الوطني بين ديني ومدني ، وتفرّغ لطبع كل ما تصل اليه يده من آثاره واخباره ، تفرّغَ الاب الفاضل قسطنطين الباشا الراهب المخلصي . فلا تكاد تمرّ له سنة دون ان يتحف القرآء فيها ببعض المقالات المفيدة ، او نشر بعض المؤلّفات الخطية المكتومة . ولكن هذه الخدم الجلّى والمزايا السنية التي احلّته محلًا رفيعاً بين اقرانه ، وخوّلته الحق الذي لا ينازع بان يعدّ نفسه « مؤرخ الطائفة وفخرها ورافع شأنها » ، لا تحاز من بعض هنات وشوائب يأسف من اجلها اشد الاسف كل طلّاب التاريخ . ولكل علم آفة . وآفة علم حضرة الاب قسطنطين قلّة مبالاته بتأدية الاصول التي يتوبها بغاية الضبط والامانة ، وتصرّفه بمتونها بين تغيير وتحوير وزيادة ونقصان . اما السهو على عليه في النقل والنسخ ، واما الغرض له او ولع في التصحيح والتنقيح . بحيث لا يتجرأ المطالع ان يركن غاية الركون الى ما يقرأه له من النصوص والتعليقات . وهو ، فوق ذلك ، كثير التأثر والنفور من كل مناظرة له ، او انتقاد بلسان العلم والحق . ومن الغريب انه يرى نفسه دائمًا شديد المحافظة على الأصل

تامّ الوفاء بذمة النقل . وهو ما اقدم على التصريح به في مقدّمة التاريخ المشار اليه في العنوان فقال بكل جدّ :

« قد اخذنا على نفسنا ان نبقي هذا الكتاب على اصله ولا نبدل فيه شيئاً رعاية للذمة في النقل . وحرصاً على قيمته التاريخية بتامها . كما يتحقق القارئ النجيب ذلك بمقابلته الصفحة الاولى من طبعتنا على الاصل الذي نقلنا منه الصفحة الاولى في صدر كتابنا ».

وهذا بعينه تكرار ما سبق له في طبع « النخبة ». بعد ان اجال فيها قلمه وفهمه[1] . وغنيٌّ عن القول ان « القارئ النجيب » لا يجوز عليه مثل هذا التمويه . ولا يعتقد ان الصفحة الواحدة ، على فرض سلامتها وضبطهـا ، تكفل سلامة سائر الكتاب . ومع ذلك فقد اردنا للمرة الثانية ان نمتحن ذمّة الطابع في النقل لنرى هل حالت بعد نيف واربع وعشرين سنة عمـا عهدناها في نقد « النخبة » . ومعلوم ان هذه الامانة تتناول لفظ الكتاب ومعناه ، اي تركيب عباراته ونصّ اخباره بالحرف . لان للغة ايضاً فائدة تاريخية لاختـلاف اللهجات وطرق الانشاء في كل عصر . وانفراد كل كاتب باسلوب في التعبير تتمثل فيه لغة زمانه وما داخلها من الضعف واللحن . والالفاظ العامية التي تتباين بحسب الامصار والمدن . فلا بد لمعرفة اصلها ومنشإها من نسبة كل لفظ واصطلاح منها الى مكانه وزمانه . وهو لا يتهيأ الا بالمحافظة على عبارة كلّ كاتب ومؤلف من ايّة طبقة كان ، حسبما صدرت من فمه وقلمه ، دون ادنى تغيير او تسديد لها . وقد غلبت على الخوري بريك اللهجة العامية كما كانت بين نصارى زمانه في القرن الثامن عشر بدمشق . وكثرت فيها ركاكة التعبير ، ومخالفة القياس ، وترك الاعراب . فاقلّ ما كان يجب على طابع تاريخهم حكاية اسلوب المؤلف في النسخة المصوّرة ، دون ان يمسّ شيئاً من اغلاطه ، ليعلم مؤرخو اللغة كيف كان يُكتب في ايامه . ونحن ، مع كل ما نجده من اللذة في تلاوة نفثـات قلم الخوري قسطنطين ، يحقّ لنا ان نطالبه بابقاء كتابة سلفه الخوري بريك على علاتها . كما طالبناه قبلاً بالمحافظة على انشاء الشماس بولس الزعيم . ولا نظنّ ان الله ارسله

١) راجع المشرق ٣٠[١٩٣٢] ٥٦١-٥٧٤

بالكاف الى الخاص. ومن هذا القبيل ايضاً تسميته بعض هؤلاء المماليك «المستخبرة» (ص ٨٨ س ٣) وهو اسم لم نقرأه لاحد في تواريخ المماليك ، مع انه دعاهم غير مرة «المستخدمة والمستخدمين» (ص ٨٩، ١٠٦، ١٠٧) لتمييزهم عن «المشتروات». ومما اخطأ فيه ايضاً نسبة القاضي بدر الدين بن جماعة بن « حازم » (ص٣٩ س٤) عوضاً عن « حارثة » . وضبطه اسم قطلوبُغا (ص ٤٥س٩) بفتح الباء . والاصح ضمّها في جميع مركبات بُغا. وهلم جرًّا من نظائر هـذه التحريفات والاوهام الشائعة في كتب كثير من المؤرخين والمترجمين.

ومن المصنفات المطبوعة ، التي عوّل عليها الاستاذ ، تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، طبعة بوپر في ليدن. وقد كان فيه غناء لو كانت طبعته نُقدت النقد الكافي. ولكنها لا تزال في حاجة الى التصحيح. وقـد اتفق احياناً لابن الفرات ان يكون اصح منها ضبطاً. ولنا الامل ان تعنى مطبعة الدار في مصر — وهي في صدد طبع هذا التاريخ — بمراجعة كل هذه الاعلام الاعجمية في مختلف الاصول. واقرار الصورة الصحيحة التي لا شبهة في ضبطها والتلفظ بها. وافضل المخطوطات عندنا ، التي كان يجدر بالاستـاذ ان يستنير بها بين هـذه الظلمات الدراسية ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي. وهو موضوع في الحوادث والتراجم يتناول كل الحقبة التي ارخها ناصر الدين. وقد طبع منه مجلّد في مصر ومن باقيه المخطوط مجلّدات في باريس ، ولندرة ، والفاتيكان. واحق مؤلف بالمراجعة ايضاً تاريخ ابن دقماق. وقد اكثر ابن الفرات من الاشارة اليه والنقل عنه . وفي الخزائن الغربية والتيمورية في مصر نسخ من كتاب الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والسلاطين له.

ولا بأس ان ندل هنا على اسماء بعض مخطوطات اخرى تصلح لمعارضة ابن الفرات في المجلد التاسع اي منذ سنة ٧٨٩ الى ٧٩٩

١ ذيل شمس الدين السخاوي على دول الاسلام للذهبي. النصف الاول فيه من سنة ٧٤٥ الى ٨٦٠. في خزانة اكسفرد.

٢ ذيل الامل في ذيل الدول (دول الذهبي) للقاضي عبد الباسط بن خليل الحنفي . فيه من سنة ٧٤٤ الى ٨٩٠ . في خزانة اكسفرد.

٣ الدرة المضية في الدولة الظاهرية لمحمد بن حصري . وهو يشبه ابن الفرات بلهجته العامية.

٤ تاريخ البدر في اوصاف اهل العصر لبدر الدين محمود العيني . فيه من سنة ٧١٧ الى ٧٩٨ . في خزانة بريتيش موزيوم ، وباريس ، ومصر.

٥ ذيل ابن قاضي شهبة الاسدي على تاريخ شهاب الدين بن حجي . فيه من سنة ٧٤١ الى ٨٠٦ . في خزانة باريس.

وفي خزانتنا صورة من ذيل ابن شهبة . وهو اكثر ما يشتمل على حوادث دمشق . ولكنه جمع كثيرًا من اخبار مصر وتراجم المتوفين فيها . وربما وافق احياناً ابن الفرات في النقل عن مصدر واحد بالحرف الواحد . وقد القينا نظرة هنا وهناك على بعض المواضع التي ورد فيها بياض او شكّ في المجلد التاسع . وبحثنا عما يقابلها في ذيل ابن شهبة فوقفنا على ما يأتي . وفي التنبيه عليه سداد من عوز . نذكره على سبيل التمثيل فقط . لضيق اوقاتنا عن التوسع والاستقراء :

	من ابن الفرات	في ابن قاضي شهبة
ص٧ س١٥-١٧	ثبت محضر شرعي على عبداقه المعروف بمخايل الظاهري ...	ثبت ... بزندقته
ص٨ س ٢	ابرهيم بن يصر	هر
ص٣٨ س١٢	اخلع السلطان على الامير سيف الدين بن اخي الامير...	الامير صادر
ص٥٠ ح٢	توفي الشيخ ابرهيم الاسيوطي المذكور في . . .	في رجب
ص١٧٣ س٢١	بدر الدين الحبار	الحباز
ص١٧٤ س٢	زامل بن ٠٠٠ بن ٠٠٠	زامل بن عيسى بن عمر بن ٠٠٠
ص١٧٥ س١٧	عثمان بن سليمان . . . بن خليل بن نوح	بن خليل بن فرح
ص٢٠٥ س٢٥	جمال الدين الكسرى	السلولي

ولا نشك ان لهذه التصحيحات والاستدراكات اشباهاً ونظائر اذا امكن الوقوف على بقية المخطوطات المشار اليها آنفاً ، ومعارضتها بالمواضع المشكوك فيها ، او المحرفة في ابن الفرات.

واما طريقة النشر وتمثيل الاصل بالطبع فغاية في الدقة والضبط . وقد بالغ الناشر في ذلك حتى نبّه على لون الحبر الاحمر ، ومواضع الحواشي والتعليقات في

الهوامش . وافرط كل الافراط فصوّر المتون في مواضعها من المسودة . وابى ان يتبع اشارة المؤلف في احلالها محلها المرتب لها كما كان فعل المؤلف نفسه، لوضوح له في الاجل وتمكن من تبييضها . ومن الامثلة على ذلك ان ابن الفرات ، لما سرد تراجم المتوفين سنة ٧٩١ ، نسيها كعادته غالباً على حروف المعجم . ولكن سبقه القلم وخط ترجمة الامير سيف الدين جركس الخليلي (بالجيم) بعد (الالف والتاء) ونسي حرف (الباء) فاورد ترجمة الامير « يزلار » الناصري بعد « جركس » . ثم استدرك هذا السهو وكتب على الهامش الايسر بالخط نفسه « يكتب بعد اربغا » (اي بعد الالف) . وهو دليل صريح على ان المؤلف ، لو قُدّر له تبييض مسودته ، لكان كتب « يزلار » بعد « اربغا » . أفما كان ، والحالة هذه ، يحسن بالاستاذ ان يفعل ما كان في نيّة ابن الفرات ان يفعله بنفسه . ويكون قد وضع الترجمة في موضعها المرتب لها وسهّل على الباحث وجودها في مظنتها . وهل الطبع الا نوع من التبييض . وقريب من ذلك ورود الحاشية الرابعة (ص١٧٥) في التعليق على ترجمة عثمان الكرادي . وقد خُطّ بجانبها في الهامش الايسر بقلم الكاتب « يلقب شرف الدين . ويشهر بالاشقر » . وقد وردت هذه العبارة بلفظها مدمجة في متن ترجمة ذيل ابن شهبة . فما كان ضرّ الطابع لو اتبع ارادة المؤلف في تنزيلها فنزلها ، بدلاً من نقلها في الحاشية . وهو قد استجاز التصرف ببعض الكلمات المشكوك فيها . واورد في المتن ما حدس فيه وخنته في مكانها مفروزا بُضتين . وكنا نودّ لو اتبع ايضاً مثل هذه الطريقة في ملء الفراغ الكثير في تراجم المتوفين . واثبات الاسماء والالقاب التي غفل عنها المؤلف او تردد في امرها ، بعد استمدادها من كتب اخرى ، كالتي نبّه عليها ورواها عن النجوم الزاهرة وشذرات الذهب وانباء الغمر . ولو اوردها في المتن محصورة بين ضمتين ، كعادته الحميدة ، لكفى القرّاء والمتأدبين مؤونة البحث عنها، وتصميد البصر وتصويبه في الحواشي والتعليقات . وكانت تكون ظاهرة للعيان ، مدلولاً عليها انها ليست من اصل المتن . كفعله في الحروف والقراءات المشتبه فيها .

ومما لا نوافقه عليه ابداله احياناً رسم بعض الحروف والكلم من الاصل كاثبات الهمزة حيث أسقطت . وكنا نفضّل لو ابقى كتابة المؤلف على علاتها ،

دون ان يمسها باصلاح اسوة بسائر ملاحن الكتاب . ولا يخفى ما في المحافظة على الاصل ، كما خطّه قلم المؤلف ، من القيمة والدلالة على تاريخ اللغة العامية وزمانها . واي ضرر ترى في كتابة الثلاثا . والامرا . والانشا . وروس . وعبا واشباهها دون همز في كتاب معروف بعاميته ؟ وهل يتعذّر فهمها على احد ؟ ولِمَ قصر الاستاذ الهمز الفصيح عليها وعلى نظائرها ، واعفى منه امثال تايب (ص٢ س٣) والضايع (ص١٢ س١٣) واختفايه (ص١٢٧ س١٦) والصايبة (ص١٤٥س٥) وريس(ص١٦٢ س٢) ويكافيه (ص٢١٣ س٢) وبمَ استحقت طائفة من الكلم ، ما حُرمته الاخرى في نظره ؟ واذا كان لا بد من الهمز ، فلمَ لم يضعه على اروس (اروس) وابدل منها حيث وجدها روؤس . (ص ١٣١ و١٦٥ و١٦٨) ومثله لا يجهل ان الاولى افصح لانها جمع قلة . وهي لم تستعمل الّا في الدلالة على ثلاثة واربعة وخمسة من الخيل فقط . وفي اصلاح لفظة استيسروا ووضع استأسروا في مكانها (ص٣٣ س١٦) — وهي لا تشبه قلم ابن الفرات — ضياع فائدة لمؤرخ اللغة العامية . لان الاولى تدل على ان قول عامتنا اليوم يسر ويسرا ، في مكان اسر واسرى ، هو قديم وليد العصور السابقة .

ولعلّنا أطلنا في التنبيه على هذه الهنات اليسيرة وهي لا تزري شيئاً بفضل الاستاذ واحسانه في تمثيل الكتاب . ولكننا نريد استرعاء نظره الى المجلدات الباقية . وليسمح لنا ان نضرب له مثلًا على افضلية ابقاء القديم على حاله . وتصوير الالفاظ العامية كما رسمت في نصوصها ، الا حيثما يُتحقق تشويهها بقلم الناسخ . فانه مرّ به في ثلاثة مواضع من الصفحات (١١٠ س ١٨ و١٨٤س٢١ و١٩٤ س١) لفظة « الاهنة » بغير الف ، فاصلح كتابتها دون توقف ، وانزل مكانها « الاهانة » . ونبّه عليها في الحواشي كدأبه في كل تغيير وتسديد . وكنا نظنه انما سهو قلم ، او من قبيل كتابة بعض المتقدمين السلم اي السلام باسقاط الالف خطّ . ثم تكرّر تلاوتنا لها في عدة مخطوطات لكتاب مختلفين . فتولانا الشك وقلنا لا بد ان يكون لهذا الاصطلاح وجه وقياس . وجمعنا من الشواهد عليه العبارات الآتية نذكرها هنا لما لها من الشأن والخطر في تاريخ اللغة المولّدة :

كتب ابن عبد الحق السعدي المصري الشهير بابن البارنباري في ديوان الانشاء بدمشق ، في صدد مرسوم سلطاني ورد في حق النصارى واليهود:

« ان بيع الضلال تملأ ظلاما كما ملئت ظلما . وان يهانوا بإهنة الله التي لم تجعل لهم تصرفا ولا حكما »[1] .

وفي تاريخ ابن ميسر : « وبالغ ناصر الدولة في اهنه المستنصر مبالغة عظيمة »[2] .

وفي ذيل ابن شهبة الاسدي : « سنة ٧٧١ حصل للعجم اهنة وقامت عليهم الشناعة »[3] .

وفي تالي كتاب الاعيان للموفق الصقاعي : « وعوقب الصاحب شمس الدين ابن السلعوس الى ان مات بعد اهنة »[4] .

وفي السلوك للمقريزي : « نُقل طِنال الى غزة اهنة له » . وسجن طشتمر حمص الخضر بقلعة الكرك بعد ما اهين من العامة اهنة بالغة »[5] وهلم جرّا.

وبقيت ، مع ذلك ، في النفس بقيّة من صحة هذا اللفظ . حتى عثرنا في خزانة ميلانو الامبروسيانية على شاهد قاطع من فواصل السجع ، لا يدع سبيلا الى الريب،وهو قول كتاب مختار الاخبار : « صاحب سيس قد قطع الهدايا المقرّرة عليه . وخالف شروط الهُدَن . فعادت المرادعة منازعة . والهدنة اهنة »[6] .

وهذا الشاهد وحده كاف لاقناع كل متردّد في صلاحية ابقاء النصوص العامية على روايتها ورسمها . الا اذا تحقق تحريفها بقلم النساخ .

وقد طالعنا هذا المجلد التاسع برمّته بين اخبار وتراجم . واغتفناه بيد السأم واليأس . لعدم وقوفنا فيه على جديد يجدر بالتنويه والتقييد خلوّه من كل فائدة للمتأدب والمشتغل بتاريخ الحضارة ولغتها وخصائصها . وهو لا يتعدّى حكاية

١) درة الاسلاك لابن حبيب الدمشقي الحلبي ، باريس ١٧٠٩ ، ٢٨٦

٢) طبعة مصر ، ص ١٩

٣) خزانة باريس ١٦٠٠ ، ٢٤٦

٤) » » ٢٠٦١ ، ٧١

٥) خزانة الڤاتيكان ٧٥٩ ، ١٠٢ و١٦٦

٦) خزانة ميلانو C. 45 N° 230 du Cat. f° 56b

الملاحم والفتن ، وتنازع السلطنة والممالك . وتعداد الولايات والعزل ، والتسمم والقتل ، والخلع والانعامات ، والنكبات والمصادرات . وتردد النواب والامراء بين ذهاب وايابٍ ، وطاعة وعصيان . الى آخر ما هنالك من احوال النيل ، وتقلب الاوبئة ، وتقلب النقود . وتنحصر تراجمه كلها في ذكر المواليد والوفيات . وتقلد المناصب والدروس . وسرد اسماء الشيوخ والمحدثين . دون اقل استطراد او تنبيه على نكتة او نادرة . فهو اشبه بجرائد اليوم منه بكتاب تاريخ حقيق بهذا الاسم . وهذه آفة معظم المؤلفات المعروفة في معناه . ولا تكاد تخرج كلها عن نمط واحد يقلد فيه الواحد الآخر في اسلوب الحكاية ، وانتحال النصوص والروايات ، والاتفاق على كتمان الاصول . وعندنا ان مزية هذا المجلد التاسع التي يزّ بها امثاله هي احاطته باكثر اخبار الملك الظاهر برقوق ، والتوسع في حكاية وقائعه وسيرته ، في اثناء سلطنتيه الاولى والثانية . وقل ان يفوقه مؤلف آخر بمثل هذا التفصيل والاستقراء . وقد عني ابن الفرات بنقل الحوادث عن اصدق رواتها . ولم يكتم اسماء بعض الشهود منهم . وربما نقل عن رسائلهم وخطوطهم . وقال مرة بلفظه ولحنه : بلغني ان كتاب من جهة الامير سيف الدين طوغان وصل الى بعض اصحابه فسألته عنه فاحضره الي ونقلت منه ما صيغته (ص ١٩٧) وحكى على الاثر وقعة شقحب سنة ٧٩٢ (١٣٩٠م) . وهو يشبه في هذا الاستقصاء والاستثبات شمس الدين محمد الجزري الدمشقي في المجلد الذي وصفناه من كتابه حوادث الزمان وانبائه ووفيات الاعيان من ابنائه[1] . ولو لم يكن لابن الفرات الا هذه الحسنة وحدها لكفى بها داعياً لطبع مسودته ، فكيف وله في بقية اجزائها حسنات اخرى سنقف عليها فيما بعد . والاشياء مرهونة باوقاتها .

وقد عثرنا في اثناء مطالعتنا على بعض مآخذ وهنات في الطبع والتفسير . نستسيح الاستاذ عذرًا بالتنبيه عليها . ونتبع في سردها نسق الصفحات :

ص ١١ س ١ : قال في تفسير كلمة مضافيهم انها جمع مضاف : « وهو في الحرب من أُحيط به . نقلًا عن التاج » . وانما يُراد بهذه اللفظة ، في اصطلاح المولدين في مصر والشام ، من يُضاف الى الرؤساء والامراء . ويلحق بهم من الاتباع والحاشية والاصحاب . ويطلقون عليهم احيانًا لفظة «الأرام» .

١) مجلة الآثار الرحلية في الاجزاء ٥ و٦ و٧ من سنتها الخامسة .

وقد استعمل كتاب دواوين الانشاء الشريف هذا المعنى كلمة «مضافات» لكل ما يلحق بالقواعد وامهات المدن من الاعمال الصغار . قال شهاب الدين العمري في الكلام على بعلبك : « ومن مضافاتها ولايتان جليلتان . وهما عملا البقاعين المعروفين بالبلبكي وبالعزيزي »(١ . ويقال اليوم في معناها الملحقات

ص ١٨ س ٤ : « شاب صغير كما بلغ مبالغ الرجال» . وعلق على لفظة كما ، في الحاشية : « كذا في الاصل » . وهذا التعبير يرد احياناً بمعنى على حين . اي شاب صغير وقد ناهز البلوغ

ص ٢٠ س ١ : « واسفرت الرقعة عن كسر عسكر واهل سيواس » والصواب : كسر تتار واهل سيواس . وقد ذكر في الصفحة التالية س ٩-١١ حضور التتار الى سيواس وكسرهم واسر الف منهم

ص ٢٢ س ١٤ : « صحبتهم اخت الملك الظاهر برقوق . وابنة ابن عمه » . وانما هي ابنة عمه ، لانها كانت اخت الامير قجماس كما صرح بذلك في ص ٥٠ س ١

ص ٢٨ س ٢٠ : « شهاب الدين الوادي آشي الحلبي » وصوابها بالمد نسبة الى مدينة وادي آش في اسبانية Guadix

ص ٤٠ س ٩ : « المعلومات والمراتب » . وص ١١ « بجميل انسانيته » . وفي ذيل ابن قاضي شهبة : المعلومات والمراتب . وبجميل السياسة .

ص ٤٧ س ١٩ : « جهة الصعيد وبحري » . وعلق عليها في الحاشية ٣ : « وقد تكون وبحري » . والرواية الصحيحة هي التي اثبتها في المتن . ومعلوم ان مصر تنقسم عادة ، فيما عدا الصعيد ، الى وجه قبلي ، ووجه بحري . قال شهاب الدين العمري « الحد الشامي (اي الشمالي) بسبب اهل مصر البحري »(٢

ص ١٢١ س ٧-٨ : « طلب الزعر وكتب اسمائهم ... وحمل لهم عرفاً » يريد عُرْفاً بضم المعدود ، اي رؤساء . جمع عريف

ص ١٢٣ س ١٨ : « زنة كل طوبة من هذا الطوب الفضة الحجر ثلاثة آلاف درهم ' بسبح ' الفضة » . وانما هو بصنج الفضة . بباء اولى ونون ثالثة وجيم رابعة وصنجة الميزان معيارة

ص ١٢٤ س ٢ : « فحصب رجليه وطلع الى الاصطبل » . والصواب : فحصب بالدين اي شدّ . وقد قال بعد ذلك : ورجلي ما استطيع المشي بها

ص ١٥٣ س ٧ : « وثبوت جانبه » . والصحيح : جنانه بنونين اي قلبه .

ص ١٥٤ س ١٨ : « سأل قاضي قضاة الشافعية ان يقترض السلطان مبلغا من اموال الايتام »

---

١) المصطلح الشريف ، ص ١٧٩

٢) المصطلح الشريف ، ص ١٦٢

بتكرار الفاء ايضاً في ص١٦٦ س ٦ وهي دون ريب غلط طبع بدلاً من يقرض بالقاف.

ص١٦٣ س ٩ : « الصاحب كريم الدين لبس بالفقيري » . قال في الحاشية : « كذا في الاصل . ولم اتمكن من استخراج المعنى المقصود من هذه الكلمة » . قلنا : وهذا التعبير مستفيض في كتب الاخبار والتراجم المصرية والشامية . قال ابن تغري بردي : « ثم بدا لمحمد بن علي بن اينال ان يترك زي الجند ويلبس بالفقيري . ففعل ذلك وتفقر »(١ وقال ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٨٠٥ : « وصل السلطان احمد بن اويس الى حلب لابساً بالفقيري . »(٢ وقال ابن حجر العسقلاني : « في سنة ٧٨٢ استعفى التاج الملكي من الوزارة ولبس بالفقيري »(٣ . يريدون انه لبس الزيّ الفقيري اي لبس الفقراء . وربما اطلقوه ايضاً على غير اللباس . وفي النجوم الزاهرة ان في سنة ٨٦٦ « انشأ جوهر المنجكي نائب مقدم المماليك جامعاً بالرميلة تجاه مصلاة المؤمني . وعمارته بالفقيري بحسب الحال »(٤ اي كعمارة الفقراء . وقد بحثنا كثيراً كيف كان هذا اللباس المختصّ بالفقراء . وبعد لأي وتنقيب طويل ، وقفنا على قول ابن قاضي شهبة في وفيات سنة ٧٩٨ (١٣٩٦ م) « محمد بن المرجاني ذكره الحسني في معجمه . . . لبس زي الفقراء قطناً مصبوغاً . وعمامة على قحف الراس بغير قبع »(٥ ويشبه هذا الاصطلاح قول اهل دمشق اليوم « فعل ذلك بالكبيري » اي فعل الكبراء .

ص١٧٢ س ٤ : « كان اربنا زوج بنت خال الولد عبد الرحيم » . والمراد هو الوالد عبد الرحيم . اي والد المؤرخ ناصر الدين بن الفرات .

ص١٧٢ س ٢١ : « وقرعه الاجل المحتوم كاس حمامه » . وصوابه جرعه باجيم اي سقاه اياه جرعة بعد جرعة .

ص١٩٧ س ١١ : « نزل به الى بيته في باشة وزنجبيل » وانما هو زنجبير بالراء . ولان تغري بردي في حوادث ٨٧٠ : « نزل به وفي عنقه باشة وحنجر »(٦ والباشة حلقة يقيّد بها .

---

١) حوادث الدهور في مدى الايام والشهور (منتخبات ، طبعة ليدن) ، ٢ : ٦١٣

٢) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٩ ، ٢١٣

٣) الاول من انباء الغمر للعسقلاني ، باريس ١٦٠١ ، ٣٥

٤) النجوم الزاهرة ، (طبعة ليدن) ٧ : ١١٨

٥) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٨ ، ١٤٦

٦) حوادث الدهور ٣ : ٥١٠

ص٢٠٢ س٩-١٢ : « ارسل السلطان يحتاط على موجوده . . . خارج عن دولابه » وعلق على كلمة دولاب في الحاشية ٢ : « لعل المقصود زكاة الدولاب » . وانما يحتاط السلطان على ما ليس لهُ . وزكاة الدولاب هي مكس عائد اليه . يؤخذ عادة من كل من كان له دولاب . والمراد بالدولاب — وهو كل آلة تدور على محور — ما نسميه اليوم بالمعمل . وكانت الدواليب كثيرة في الزراعة والصناعة . كدواليب معاصر السكر ، ودواليب الحرير والقماش . وكان لسلاطين المماليك دواليب خاصة بهم . وعليها شادٌ من قيامهم . قال ابن تغري بردي في ترجمة الوزير ناصر الدين محمد بن كنبك التركماني : « ولاّه الملك الظاهر برقوق اولاً شدّ الدواوين ثم عُزل وعُوّض عن شدّ الدواوين بشدّ الدواليب الخاص » (١ . وكانوا يسمون ادارة هذه المعامل « الدولة » . قال شمس الدين السخاوي في ترجمة ابي بكر بن احمد الاركدي ويعرف بابن وُهيب : « دخل طرابلس وبيروت ودولب القماش في بلده »(٢ . ولابن تغري بردي في ترجمة بدر الدين الدماميني : « مولده بالاسكندرية سنة ٧٦٣ وله النظم الرائق . وعانى بآخره دولبة الحرير بالاسكندرية »(٣

ص ٢٠٢ س ١٢ « خلع السلطان الظاهر على قرا دمرداش نايب طرابلس وعامر والقلمطاوي نايب حماه . كل منهما قبا مفترج نخ » . وعلق في الحاشية ٣ على لفظة مفترج : « في الاصل مفترح . ولعلها مفترج بمعنى مفتوح » . ولم يرد في لغة العامة فعل افترج بمعنى انفتح . وانما هو « مفترح » بالقاف والحاء . مأخوذ من قولهم اقترح فلان شيئاً اذا استنبطه او احدثه . واقترح امراً اذا ابتدعه على غير مثال . وهو في الالسنة والازياء غير غريب . وممن عُرف بكثرة اقتراحه في الازياء والثياب الامير سلار المنصوري . قال ابن اياس : « كان لطيف الذات في ملبسه . واليه ينسب السلاري الى الآن . والمناديل السلارية . وقد اقترح في الملبوس وقماش الخيل وآلة الحرب . وهي منسوبة اليه الى اليوم . »(٤ وقد استعملت هذه اللفظة حتى في التعذيب والضرب بالعصي . وورد منها لابن الفرات قوله : « فامر السلطان باحضاره . فلما أُحضر . ضرب بين يدي السلطان مفترح . » (ص ٣١٦ س ٢٠) وشك الطابع في هذه القراءة فاوردها بين قوسين .

---

١) النجوم الزاهرة ٥ : ٦٢١

٢) السابع من الضوء اللامع . الخزانة التيمورية ، ص ٤٠

٣) الرابع من المنهل الصافي . الخزانة التيمورية ، ص ٥٦٢

٤) تاريخ ابن اياس ١ : ٥٥

وهي صحيحة لا غبار عليها . ومن امثلتها ايضاً قول ابن قاضي شهبة : « سنة ٧٨٥ احضر السلطان سعد الدين البقري . وضربه بالنص مقترحاً على ظهره نحو ثلثمائة عصاً » (١ وله ايضاً في موضع آخر : « عاقبوه وضربوه مقترحاً على ظهره » (٢ . ولنا شاهد على هذا التفسير ينفي كل تردد واشتباه قول المقريزي : « سنة ٧٤٠ مات بدمشق الامير اقسنقر . . . اقترح في ولايته عقوبات مهولة . منها انه نعل الرجل في رجليه بالحديد كما تنعل الخيل » . (٣

ص ٢١٦ س ٨ « وحرر الناس قاشهم » والصواب : حول باللام .

ص ٢٧٢ س ٢١ « الصاحب علم الدين سن برة » وصحة هذا الاسم : سنّ إبرة .

ومن هذه الاستدراكات والتصحيحات التي مرّت بنا تتضح كثرة ما ركبه ابن الفرات من الغرور والوهم والجهل في ما نقله واستنسخه في كتابه . وامام الدكتور زريق في المجلدات الآتية ، عقبات شتى لا نشكّ انه سيذللها بصبره وفطنته واجتهاده ؛ « وقد يصلح العطار ما افسد الدهر ! » .

١) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٨ ، ص ٣٨٣ ، خزانة باريس

٢) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٩ ، ص ١٣٣ ، خزانة باريس

٣) السلوك ، خزانة الڤاتيكان ٧٠٩ ، ص ١٤٣